السبت 8 تموز 2023
العدد 4956 السنة السابعة عشرة
Samedi 8 Juillet 2023 no 4956 17ème année

24 صفحة
20000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

51 عامًا
على استشهاد
الأديب المناضل
غسان كنفاني
حيّ ما دامت
فلسطين حيّة

«القسام» رسمياً وعلنياً على خطّ الاشتباك

الضفة تفتتح مرحلة مواجهة جديدة [8]

النواب الأربعة يستعدّون للاستقالة: منصّة صيرفة مضلّلة ولدينا البديل

هل تدعم بكركي و«القوات» تعيين حاكم جديد؟ [2]

اطلب القوس مع الأخبار

الأبيض «يُبعزِق» 30 مليون دولار

[5 ـ 4]

(هيثم الموسوي)

البلاد

جنين

«وصار صراع الوجود معافى»

[15-12]

تقرير

تركيا تُوسّع حركتها الديبلوماسية
تثبيت للمصالحات... وتنازلات «حيث يجب»
10

قضية اليوم

هل تغطّي بكركي و«القوات» جلسة لتعيين حاكم جديد؟

إزاء رفض التيار الوطني الحر وحزب الله إقدام حكومة تصريف الأعمال على إجراء تعيينات في الإدارة العامة، باشر الرئيس نجيب ميقاتي مدعوماً من رئيس مجلس النواب نبيه بري حملة سياسية من أجل تأمين التغطية لجلسة حكومية تعالج مسألة الشغور في منصبَي حاكم مصرف لبنان ورئيس الأركان في الجيش اللبناني.

وقالت مصادر مطّلعة إن ميقاتي بدأ اتصالات مع البطريرك الماروني بشارة الراعي ومع «القوات اللبنانية» وبعض النواب المسيحيين، من أجل إقناعهم بدعم عقد مجلس الوزراء لجلسة تعيين حاكم جديد لمصرف لبنان. وأضافت المصادر أن بري وميقاتي يركزان على مخاطر الشغور في هذا المنصب، ويستخدمان تهديد نواب الحاكم الأربعة بالاستقالة لهذا الهدف.

وأشارت بعض المصادر إلى أن محاولة إقناع البطريرك الراعي تنطلق من أن موقع حاكم الصرف هو الأرفع للمسيحيين والموازنة بعد رئاسة الجمهورية، وأن مسلماً شيعياً سيتولى المنصب، ولفترة لا يُعرف مداها في ظل الشغور الرئاسي والعجز عن توافق على انتخاب رئيس بديل، وأن قائد الجيش لا يمكنه القيام ببعض الأعمال جرّاء عدم وجود رئيس للأركان ينوب عنه. وتحدّثت المصادر عن أن ميقاتي الذي يعرف موقف التيار الوطني الحر الرافض للأمر، يعمل على جذب القوات اللبنانية صوبه، من خلال محاولة التفاهم معها على اسم مرشح يخلف سلامة في منصبه. لكنّ القوات تظهر تحفّظات كثيرة، خصوصاً إذا لم يبادر البطريرك الماروني إلى توفير الغطاء اللازم.

أما التيار الوطني، فقد نفت مصادره أن يكون قد وافق على مناقشة الملف، لا من زاوية السماح للحكومة بتعيين حاكم جديد ولا بالنقاش حول اسمه، وأبلغ مسؤول بارز في التيار «الأخبار» بأن التيار لا يزال يعتقد أن الحل الامثل، هو تعيين حارس قضائي على مصرف لبنان، يُتفق على اختياره من بين قضاة موارنة يمكن توفرهم للقيام بهذه المهمة ريثما يصار إلى تعيين حاكم جديد.

وعلمت «الأخبار» أنه إلى جانب مشكلة «الموقف المسيحي»، فإن معضلة أخرى تعترض بري وميقاتي تتمثل في رفض حزب الله أن تقوم هذه الحكومة بأي تعيينات إدارية. وقال مصدر مطّلع إن بري وميقاتي يحاولان إقناع الحزب بعدم مقاطعة أي جلسة تكون مخصّصة لهذا الغرض حتى ولو صوّت الوزراء المحسوبون عليه ضد التعيين. لكنّ الحزب يدعو لترك الأمور تسير وفق الآليات القانونية، وأن يتولى النائب الأول مهام الحاكم، وأن يقوم المراجع المعنيون بالاتصالات الضرورية داخلياً وخارجياً لضمان عدم عرقلة عمله حتى يتم تشكيل حكومة جديدة تعين الحاكم الأصيل.

(الأخبار)

نواب سلامة: «صيرفة» مضلّلة

محمد وهبة

تقول المعلومات إن نواب حاكم مصرف لبنان الأربعة اعدّوا منصّة بديلة يناقشون تفاصيل عملها مع بلومبيرغ حتى تكون أولى خطواتهم في الإتجاه الصحيح، لتعكس شفافية في التسعير والعمليات، وسعر الصرف الفعلي ولا تقوم بأي عمليات دعم يفترض أن تقوم بها الحكومة المركزية عبر وزارة المال.

يعود هذا الكلام، إلى فترة صدور التعميم 161 الذي ينظّم، أو يفتح العمليات على منصّة صيرفة، إذ لم يمض شهر حتى أعدّ نائب الحاكم سليم شاهين دراسة قدّمها للحاكم رياض سلامة، تقترح وقف صيرفة التي كانت تستنزف الدولارات بلا أي نوع من الشفافية، وكانت تعبّر عن رغبة في تثبيت ودعم سعر الصرف، أي عن الفترة التي تراكمت فيها الخسائر وانتهت بانفجار الأزمة النقدية والمصرفية. ولم يطل الأمر قبل أن يكتشف شاهين ورفاقه، أن صيرفة كانت أداة للتضليل. ففي اجتماعات المجلس المركزي الأخيرة أبلغهم الحاكم أن المنصّة لا تسجّل أي خسائر منذ ثلاثة أشهر. بمعنى أنها لا تستنزف سيولة مصرف لبنان بالعملة الأجنبية. لكنّ سلامة لم يقدّم تفسيراً لهذه المعطيات التي تبدو غير منطقية، نظراً إلى الهامش السلبي بين سعر الصرف المحدّد لصيرفة مسبقاً، وسعر الصرف في السوق الحرّة. في مطلع الشهر الماضي بلغ الهامش 10 آلاف ليرة مقابل الدولار الواحد، وبموجب ذلك لا يفترض أن يسجّل مصرف لبنان إلا الخسائر في ميزانيته. والهامش هو مؤشر بسيط، إلى الاستنتاج بأن هناك عملية تضليل واسعة يقوم بها سلامة، أو حتى تزوير للقيود. ولو كانت هناك شفافية في المنصّة لكانت هذه الحقيقة ظهرت، إلا أن الحاكم قرّر عمداً الاستمرار في هذا الغموض ولم يقدّم أي معلومات بشأن هذه المنصّة وآلية عملها، وحجم عمليات البيع والشراء بالتفصيل، ولا بشأن العمولات التي تتقاضاها المصارف، بل حجب عن المجلس المركزي كل هذه التفاصيل زاعماً أنها لا تسجّل خسائر خلافاً لأي منطق.

(هيثم الموسوي)

في هذا الإطار، يقول أحد نواب الحاكم إنه جرى تحضير البنية الأساسية لمنصّة بديلة بآليات أكثر شفافية وتعكس الواقع في السوق، أي السعر الحقيقي العائم لليرة مقابل الدولار وليس السعر المدعوم والمثبّت الذي تظهره المنصّة. أي دعم للرواتب هو حقّ لموظفي القطاع العام، لكنه يجب أن يأتي عبر السياسة المالية، وليس عبر الآليات النقدية. وتستهدف المنصة الجديدة بشكل رئيسي ضرب المضاربات القائمة على العملة الوطنية الآن بالتعاون بين أعضاء شبكة كبيرة يتحكّم سلامة بها.

بالنسبة إلى النواب الأربعة فإن المنصّة البديلة، تشكل عملاً تأسيسياً لما هو مطلوب لاحقاً. فالقرارات والقوانين المطلوب اتخاذها تتطلب جرأة لا تملكها القوى السياسية التي فوّضت سلامة أمرها والإنابة عنها في إدارة المال العام والخاص. لذا، كان يقود عمليات الدعم بكل أشكالها، ويمنع أو يوافق على زيادات الأجور للقطاعين العام والخاص، وكان يفرض القوانين على الموازنة ويلغيها منها... وبامتداداته السياسية، نفّذ على مدى العقدين والنصف الماضيين، أكبر عملية توزيع للثروة والدخل انتهت بالانفجار الحالي للعملة المحلية وللمصارف بخسائر هائلة تبلغ 72 مليار دولار. ودور الحاكم هذا استمرّ خلال الأزمة، وقدّم الخدمة القصوى للقوى السياسية عندما خلق تعددية في أسعار الصرف، وترك التضخّم يتغذّى على انفلات سعر الصرف وتعدديته وعلى طبع المزيد من الليرات، وكل ما قام به كان عبارة عن خطوات ترقيعية وغطّته هذه القوى، ومن أبرزها منصّة صيرفة.

> **منصّة بديلة مقترحة تلغي الدعم والمضاربات**

نواب الحاكم اعترضوا على هذا المسار بخلفيتين: إدراك خطورة الأمر، والقلق من تحميلهم مسؤولية كبيرة نيابة عن سلامة. فمع قرب انتهاء ولاية سلامة، لاحت فرصة القيام بعمل ما اتفق على أن يكون بياناً يلوّح بالاستقالة، لكنه جوبه بالأمر بتخوين النواب الأربعة الذين اتّهموا بأنهم يتهرّبون من مسؤولياتهم. لكنّ المسألة بالنسبة إليهم لا تتعلق بالسلوك، بل في مقاربة الأزمة، فالإصوات نفسها التي تخوّن نواب الحاكم لا توجه كلمة لوم إلى من هم في سدّة المسؤولية منذ سنوات وعقود ولكنهم يعجزون عن انتخاب رئيس للجمهورية وعن إقرار قوانين تمهّد لإصلاحات مالية.

> **الفائدة على الليرة 100%**
>
> تبيّن أن الإجراءات التي يقوم بها حاكم مصرف لبنان لتجفيف السيولة بالليرة من السوق، أدّت إلى رفع أسعار الفائدة على الليرة إلى 100%. وأتى ذلك في موسم تسديد الضرائب لوزارة المال مثل ضريبة القيمة المضافة وضرائب غيرها تسدّدها الشركات عبر الاستدانة بالليرة من المصارف والاستحصال على شيكات مصرفية نقدية منها لإيداعها لدى مصرف لبنان. لكنّ ارتفاع سعر الفائدة دفع التجّار إلى الامتناع عن تسديد الضريبة في وقتها لأن غرامات التأخير أقل كلفة من تأمين السيولة بالليرة.

النواب الأربعة يستعدّون للاستقالة بعد أسبوع:
ليشرّع المجلس قانوناً يمنحنا التغطية القانونية

يتّجه نواب حاكم مصرف لبنان الأربعة وسيم منصوري، بشير يقظان، سليم شاهين والكسندر مراديان، إلى مزيد من الخطوات في حال لم يظهر خلال الأسبوع المقبل أي حل مناسب من قبل السلطات الدستورية. وعلمت «الأخبار» أن النواب الأربعة يدرسون إصدار بيان ثانٍ بعد نحو عشرة أيام، يعلنون فيه الخطوات التي يعتقدون أنها المناسبة ربطاً بما سيحصل من تطورات خلال الفترة الفاصلة.

وبحسب المعطيات، فإن التواصل بين المراجع المعنيين والنواب الأربعة لم يحصل بطريقة تشير إلى نضوج العلاج، وإن نواب الحاكم أبلغوا من يهمّه الأمر، بأن موقفهم يرتبط أساساً باختلافاتهم التي لم تخرج إلى العلن مع سلامة نفسه. ونُقل عنهم أن محاضر جلسات المجلس المركزي لمصرف لبنان سرية، ولكن من يتاح له الاطّلاع عليها، يعرف أن الخلافات مع سلامة كبيرة جداً.

وقال مصدر مطّلع على المداولات إن البيان الذي صدر لا يستهدف إحراج السلطات الدستورية فقط، بل يستهدف سلامة نفسه، وللقول بأن فكرة التمديد له أو الاستعانة به كمستشار في المرحلة الانتقالية هي أمر مرفوض من قبلهم، وأن خلافاتهم تتجاوز النقاش حول منصة «صيرفة» بل تشمل كل آلية العمل واتخاذ القرارات وكيفية التعامل مع السوق النقدية. وأوضح المصدر أن النواب الأربعة يشعرون بالضغط جراء الوضع الذي وصل إليه مصرف لبنان بعد الادّعاء عليه أو توجيه الاتهامات إلى الحاكم من قبل سلطات قضائية في لبنان والخارج، وهو أمر له آثاره السلبية الكبيرة على صورة المصرف وعلاقاته ودوره، وأن النواب الأربعة لهم الحق في التصرف بحذر حتى لا يكونوا عرضة لملاحقات بسبب سياسات وقرارات يتخذها سلامة دون العودة إليهم أو دون الأخذ بملاحظاتهم.

وعن المطالب المباشرة والواقعية للنواب الأربعة، يقول المصدر إنهم يعتقدون بأن الأزمة القائمة توجب على القوى السياسية كافة أن تبادر إلى خطوات توفّر الغطاء القانوني لعمل إدارة المصرف. وأضاف المصدر أن النواب الأربعة يريدون من مجلس النواب تشريع قانون بمادة وحيدة، تقول بأنه يجيز للمصرف المركزي «استعمال السيولة الموجودة لديه بالعملات الصعبة، وأيّاً كان نوعها أو وصفها أو الغاية المعدة لها»، وأن يجيز للمصرف المركزي «استعمال هذه الأموال لغايات نقدية والتدخل في العمليات من أجل استقرار سعر صرف العملة الوطنية». ولا يمانع النواب الأربعة أن يحدد القانون سقفاً معيناً، ربطاً بكون هذه الأموال تخص فعلياً ودائع الناس أو تعود إلى جهات تقوم بها الدولة وتضعها في حساباتها في مصرف لبنان.

> **التدخل في السوق لضبط استقرار سعر الصرف يحتاج إلى تغطية قانونية تسمح لنا باستعمال جزء من الاحتياطي**

واختصر المصدر الموقف الإجمالي للنواب الأربعة، بأنهم في وضع لا يريدون فيه تحمّل المسؤولية عن أعمال قد تكون مخالفة للقانون، وأنهم يريدون أن تكون القوى السياسية شريكة في تحمل المسؤولية من خلال إصدار القوانين التي تشكل الغطاء لكل العمليات المالية والنقدية لاحقاً. وفي حال تعذّر ذلك، فإن النواب الأربعة لا يعتقدون أن بمقدورهم الاستمرار في عملهم حتى ولو طلبت الحكومة منهم ذلك.

(الأخبار)

في الواجهة

حاكمية مصرف لبنان: الأوساخ تحت السجّادة

> من حيث ترتق تُمتق. لا يكاد يمر يوم ليسئ له مفاجآته وعلى طريقته في بلد مصطلاته لا تنتهي ولا تُسوَّى. إلا أن أحداً لا يسعه أن يعرف سرّ أنه من دونها لا يستمر. أحدث المفاجآت قبل يومين توازي ما قبلها غرابة. عوض أن تنتشل مصرف لبنان من غرقه تشدّه أكثر إلى القعر

نقولا ناصيف

رغم التهويل الذي تضمّنه بيان النواب الأربعة لحاكم مصرف لبنان، وبينهم أولهم المفترض انتقال الصلاحيات إليه بحكم القانون، ضامراً تهديداً باستقالتهم الجماعية ما لم يُعيّن حاكم بخلف رياض سلامة، أتى الجواب سريعاً في الساعات المنصرمة من حزب الله من خلال ما تردّد عن تواصل بينه وبين التيار الوطني الحر حيال المسألة هذه: لا تعيينات في مستوى المتداول في حكومة تصريف الأعمال ولا بالذات لحاكم مصرف لبنان الآن.

لم يقل النواب الأربعة في بيانهم بأنهم سيعتزلون. إلا أن العضو السنّي سليم شاهين أفصح عن فحوى التهديد. تحدّثوا أيضاً عن «المصلحة العامة» على طريقتهم، لا بناءً على اجتهاد القضاء الإداري المحدَّد لها معاييرها وشروطها. المصلحة العامة تلك نظّمها القانون نفسه بإحلال انتقال الصلاحيات محل الشغور والفراغ.

كان ثمة أكثر من سبب في خلال ولاية الرئيس ميشال عون، بعد انفجار الأزمة النقدية واختناق العملة الوطنية وانهيار الاقتصاد، للتفكير في حاكم يخلف سلامة، وأجهة ذلك الانهيار دونما أن يكون المسؤول الوحيد عنه. لم يكن الرجل، قبل ثلاث سنوات، أضحى صاحب أسوأ سمعة مهنية وأخلاقية، ولا طاردته الدعاوى والملاحقات في الداخل والخارج، ولا أبانت التحقيقات ثرواته وشقيقه وصديقاته، ولا انتهى المطاف به مذّاك سجين مكتبه في مصرف لبنان، قبل الوصول أخيراً إلى وضع اليد على ما يملك في فرنسا وأوروبا. كان لا يزال في منتصف ولايته وليس على أبواب الخروج.

مع ذلك فإن فكرة إقالته لتحميله المسؤولية المباشرة عما حدث، التصقت لدى حمَاته باتفاق مسبق مستحيل في ذلك الوقت على مَن يخلفه. مذّاك طال السجال من حوله، إما التمسك ببقائه في منصبه بحجة عدم التفاهم على مَن يخلفه وفي الوقت نفسه عدم البحث عن أحد يخلفه، وإما من أجل أن تبقى الأوساخ تحت السجادة وهو قاعد عليها. أخيراً انتهت أو تكاد ولايته في 31 تموز. فجأة لم يعد مهماً الاتفاق على مَن يخلفه، وبات ثمة إلحاح على تعيين حاكم جديد قبل التحقق ممّن سيؤتى إلى المنصب، أي فريق يقترحه وضد أي فريق أو نكاية به؟ تأتي به طائفته أم السلطة التنفيذية؟ أم توافق المراجع المعنيين في السلطات الدستورية والواقعية في الداخل، دونما حاجة إلى وجود رئيس الجمهورية.

بعدما بانَ في الأسابيع الماضية أن مشكلة الحاكمية رُتقت أو أوشكت بتولي النائب الأول، الشيعي، وسيم منصوري المنصب، وغُزي جانب رئيسي من زيارته لواشنطن أخيراً إلى مناقشته هناك انتقال السلطة إليه، فُتقت مجدداً الخميس ببيان نوابه الأربعة الذي صعد إلى واجهة الحدث في الأيام المتبقية في ولاية سلامة.

يتلازم المعطى المستجدّ وملاحظات:

أولاها، بعض إيحاءات بيان الأربعة في حال تعذّر تعيين حاكم جديد، تمديد ولاية الحاكم الموشك على الرحيل. لا يملك مجلس الوزراء تمديد ولايته ما دامت المادة 18 في قانون النقد والتسليف تحددها بست سنوات غير منقوصة، ما يقتضي إذّاك العودة إلى مجلس النواب لتعديل القانون ذاك بما يسمح بتمديد الولاية إلى أكثر من ست سنوات. الخيار الوحيد المتاح لمجلس الوزراء هو إعادة تعيينه بالثلثين لولاية قانونية جديدة كاملة غير مجتزأة. في ما تردّد أن سلامة طلب تمديد ولايته سنتين، فقوبل بموقف المراجع المعنيين بالموافقة على سنة أشهر فقط. كلا الخيارين متعذّر من دون تعديل قانون النقد والتسليف.

ثانيتها، اختلاف تفسير المدلول الفعلي لبيان النواب الأربعة لحاكم مصرف لبنان، بين قائل بأنهم جديون في تهديدهم ولا يريدون أن يضحوا عرضة للاستهداف عن الماضي والحاضر في آن، وبين قائل بأنهم يرومون سلفاً غطاء سياسياً بعدم التعرض إلى المرحلة الانتقالية التي ستجعلهم، في الواقع لا في النص القانوني، أقرب إلى قيادة جماعية لمصرف لبنان في غياب حاكمه وأن على رأسه النائب الأول.

ليس خافياً أن ما باتوا يطلبونه اليوم لم يكن لديهم قبلاً في مرحلة استئثار سلامة بالحقبة المنصرمة كلها، مكتفين بالامتيازات التي منحهم إياها.

ثالثتها، التباين المعلن بين طرفَي الثنائي الشيعي، الرئيس نبيه برّي والأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله. كلاهما ليسا في وارد تناقض موقفَيهما ولا حتماً الخلاف، ويمكن أن تُعزى الظلال هذه إلى مناورة أو تقاسم أدوار حتى. قال برّي إنه مع تعيين الضرورة في مجلس الوزراء في إشارة لا تقتصر على حاكمية مصرف لبنان، بل يمتد إلى رئاسة الأركان في الجيش وعضوية المجلس العسكري وربما. وقد يكون حتمياً. إلى قائد الجيش جوزف عون الذي يغادر منصبه في 10 كانون الثاني المقبل. قبل رئيس البرلمان، قال الأمين العام لحزب الله كلاماً معاكساً قاطعاً: حرْم على حكومة الرئيس نجيب ميقاتي تعيينات مهمة كهذه، وأوجد بنفسه لها المخرج الذي ارتضاه الشيعة لأنفسهم بانتقال موقت لمنصب المدير العام للأمن العام إلى الأول الذي يخلف اللواء عباس ابراهيم وهو ماروني، ما يتيح القياس نفسه بانتقال موقت للمنصب الماروني في الحاكمية إلى الأول الذي يخلفه وهو شيعي. تصبح المعادلة متوازنة مساوية بلا ظلم أو افتئات، ويُنظر إليها على أنها موقتة.

> **نواب الحاكم يريدون الاستقالة أم يستجيرون بغطاء سياسي للمرحلة الانتقالية؟**

رابعتها، لا متنفس لالتئام حكومة ميقاتي بلا ظهير حزب الله. مقدار حماسة رئيسها للتعيين، فإن الموقف المعلن للحزب هو رفضه تماماً. ذلك يعني، في حال الإصرار على جلسة تعيينات، تغيّبه عنها وتالياً حضور نصف الثنائي الشيعي مع غياب أساسي لكوْن مسيحي رئيسي هم الوزراء المقاطعون في الأصل جلسات مجلس الوزراء. تمسي المشكلة مضاعفة تغيّب الحزب بمفرده، إذ لا مناص من تفسيره بأنه تواطؤ ضمني يضمر موافقة مسبقة على تعيين حاكم جديد.

خامستها، يُفسّر الموقف السلبي في رفض تعيينات تبدأ بحاكم مصرف لبنان، إرسال حزب الله إشارات إيجابية إلى الأقرقاء المسيحيين ولا سيما خصومه الجدد وهم التيار الوطني الحر، متهيّباً مغزى تعيين حاكم فيما منصب رئاسة الجمهورية شاغر. يراد بالموقف السلبي هذا أيضاً إعادة فتح أبواب يغلقها التيار الوطني الحر في وجه حزب الله، بينما الواقع أن الحزب يسعى إلى فتح الأبواب التي يعتقد أن التيار يغلقها على نفسه: ردّ الاعتبار إلى الموقف المسيحي الحليف والوقوف إلى جانبه في معزل عن خلاف الطرفين على ترشيح سليمان فرنجيه لرئاسة الجمهورية.

بعض المغالين في قراءة موقف الحزب، أن معارضته تعيين حاكم جديد قريباً ثم معارضته تعيين قائد للجيش في مرحلة متقدّمة ما دام الشغور الرئاسي مستمراً، يراد منهما محاولة الضغط على الأميركيين أكثر المعنيين واهتماماً بالمنصبين وبمَن يشغلهما.

تعيين حاكم جديد بات بعد ثلاث سنوات من الامتناع يتقدّم التوافق المسبق على الخلف وفي حصة مَن؟ (أرشيف ـ بلال جاويش)

على الغلاف

«إنجازات» الأبيض
وزير الصحة «يُبعزق» 30 مليون دولار

من البديهي أن كل ما يحدث أوّل مرة يصحّ تصنيفه كإنجاز. لكنّ وزير الصحة العامة، فراس الابيض، يتصرّف وكأن كل ما يحدث في الوزارة يحدث للمرة الاولى. وهذا يأتي عرفاً راسخاً لدى الوزير الذي أخرج من حساباته أن العمل الوزاري استمرارية، وذهب إلى تصنيف كل ما يقوم به في خانة الإنجاز الشخصي، حتى ولو كان نسخاً لعمل بدأ سابقاً، ولكن بتوليفة جديدة. في دولة مفلسة، وقطاع صحي واستشفائي في الحضيض، «يبعزق» أبيض 30 مليون دولار على مشاريع مستنسخة، من دون المرور بالآليات القانونية

(هيثم الموسوي)

راجانا حميّة

نهاية عام 2018، وافق المجلس النيابي على قرض من البنك الدولي للإنشاء والتعمير بقيمة 120 مليون دولار لدعم القطاع الصحي. بحسب الخطة، آنذاك، كان يُفترض أن يُخصص هذا المبلغ لتعزيز مبدأ الرعاية الصحية الأولية على مدى خمس سنوات. غير أن المشروع لم يكتمل. جائحة «كوفيد - 19» وما رافقها من أزمة مالية حادة، دفعت إلى تحويل مسار جزءٍ من القرض، إذ قرّر مجلس الوزراء بموافقة البنك الدولي تخصيص 40 مليون دولار أميركي لدعم وزارة الصحة العامة في التصدي للأزمة «ضمن برنامج الاستجابة السريعة لتفشي كورونا في لبنان (...) عبر تجهيز المستشفيات الحكومية وزيادة قدرتها على علاج الحالات المشتبه في إصابتها».

مرّ الكوفيد وانتهت فترة «الاستجابة الطارئة»، التي بلغت كلفتها ما أقرته الحكومة، مضافاً إليها 20 مليون دولار، فيما بقي من القرض المفترض لدعم الرعاية 60 مليوناً. إلا أنه مع تمدّد الأزمة وارتفاع سعر صرف الدولار الذي انعكس تضخماً في فواتير الاستشفاء، قرّر مجلس الوزراء، بناءً على اقتراح وزارة الصحة، حجز 30 مليون دولار من المبلغ المتبقي لتغطية نفقات الاستشفاء، وتركت الثلاثين الأخيرة للرعاية «لأن البنك الدولي لن يقرّ بما تبقّى ما لم تُعط نسبة منه للرعاية»، بحسب المصادر سنداً إلى ما هو متعارف عليه.

وبما أن الأموال لا يمكن صرفها من دون دراسة جدوى لتقرير وجهتها، ارتأى وزير الصحة العامة، فراس الأبيض، أن يرسم سيناريو لتوزيع هذه الملايين، وخرج بفكرة عبقرية تقول بتقسيم المبلغ إلى جزءين: الأول بقيمة عشرة ملايين دولار والثاني بقيمة 20 مليوناً. ومن بين الأفكار -

> **يتخذ الوزير قرارات منفردة بتوقيع عقود واتفاقيات من دون المرور بأيّ آلية قانونية**

الإنجازات التي سار بها تخصيص الملايين العشرة لبرنامج تدريب مستمر عبر توقيع عقود مع الجامعة الأميركية في بيروت وجامعة البلمند لتدريب ممرضين وأطباء طب عام لتحويلهم إلى أطباء عائلة. كما خصّص جزءاً من هذا المبلغ لتوقيع عقد مع شركة التأمين «غلوب مد» من أجل إجراء تدقيق (audit) للعقود الرعائية.

في الشق المتعلق بهذا المبلغ، ولأن الحكم (ومن ضمنه العمل الوزاري) استمرارية، كان يفترض بالوزير أن يعود خطوات إلى الخلف بإعادة إحياء برنامج التدريب الذي كان معمولاً به بناءً على عقد موقّع بين الجامعة اللبنانية والجامعة الأميركية لتدريب طلاب طب عام وتحويلهم إلى طب عائلة (توقّف بسبب جائحة كورونا والأزمة المالية). وهو برنامج لم يسقط بـ«البراشوت»، كما يحدث اليوم، حيث يتخذ الوزير قراراً منفرداً بتوقيع عقود واتفاقيات آلية قانونية. فالبرنامج السابق خوّلت دراسته إلى ديوان المحاسبة الذي وافق وأشرف على الملف الذي «بلغت كلفته نحو 300 مليون ليرة، أي ما يعادل 200 ألف دولار في ذلك الوقت». وانطلقت في حينه الدفعة الأولى التي استهدفت 40 طبيباً «عملنا على تدريبهم في مستشفيي الجامعة الأميركية وبيروت الحكومي وفي الجامعة اللبنانية، وانتهينا بالفعل من الدورة الأولى وأجرينا الامتحانات، إلا أن الطلاب لم ينالوا شهادات تخرّجهم بسبب الأوضاع التي حلّت منذ تشرين الأول 2019»، على ما يقول العميد السابق لكلية الطب في الجامعة اللبنانية، بيار يارد. وكان من المفترض أن يبدأ العمل على تدريب دفعة جديدة من 40 طبيباً لم تكتمل هي الأخرى «لأن أحداً من الوزراء لم يهتم للموضوع».

اليوم، قرّر الوزير أبيض أن «ينطّ» فوق البرنامج الموجود، لاستبداله ببرنامج مطابق «يعني - COPY PASTE» وإنما ببصمته. والبصمة بالنسبة إليه هي الإنجاز الذي سيحمل في ما بعد اسمه، ليقال بعدها: «على إيام الوزير أبيض»!. هكذا، ومن دون حسابات لما سبق ومن دون المرور حتى بالآلية التي تفرض العودة إلى ديوان المحاسبة، وقّع أبيض عقداً مع الجامعة الأميركية لتدريب ممرضين وآخر مع البلمند لتدريب الأطباء. وفي ذلك، يكسب الوزير الرهان، فمن جهة حقّق الإنجاز ومن الأخرى «فتح على الأكاديمي». بشطبة قلم، نسخ ما كان بـ«EDITION» جديدة، كما حصل سابقاً في برامج أخرى منها الـ«مديترالك». وهو ما ليس مفهوماً حتى اللحظة، ما الجدوى من تكرار البرنامج نفسه بعقد جديد... طبعاً غير صرف مبلغ هائل من المال؟

انتهى أبيض من العشرة الأولى، وبدأ دراسته للعشرين مليوناً التي تقرّر أن تصرف لمراكز الرعاية. وهذه المرة أيضاً، كان القرار «منزلاً» من مكتب الوزير، إذ رغم الاجتماعات والنقاشات التي جمعت المعنيين بمراكز الرعاية، قرّر الوزير وفريقة وجهة صرف المبلغ «من خلال اختيار 40 مركزاً للرعاية لدعمها ودعم 170 ألف مستفيد من العائلات الأكثر فقراً ببطاقات صحية ممغنطة يستخدمونها في المراكز المدعومة».

لكن، السؤال: كيف ستتم عملية الاختيار وخصوصاً أن هناك 193 مركزاً للرعاية من أصل 293 بحاجة إلى الدعم لا 40 فقط، «لكون المراكز الـ100 المتبقية تحظى بدعم من الاتحاد الأوروبي»؟ وهل ستأخذ المعايير التي يعمل على صياغتها اليوم «مقاس» احتياجات المراكز والأولويات أم أنها ستكون مرسومة على مقاسات تناسب ما يريده هو؟ وكيف ستتم عملية المراقبة؟ كل تلك الأسئلة لم ينجح المعنيون في الوزارة في الحصول على أجوبتها، حتى وصلت النقاشات في الفترة الأخيرة إلى محاولة الطلب من الوزير العمل على اختيار «100 مركز بالحد الأدنى لتوزيع الدعم أو تقرير حاجات كل المراكز وتوزيع الأموال بما يسمح للكل بالاستفادة»، خصوصاً أن هناك مشروعاً موجوداً منذ عام 2015 للرعاية ويمكن الاستفادة منه بدلاً من الانطلاق من نقطة الصفر. غير أن أياً من تلك الطروحات لم يؤخذ في الاعتبار. أنا «ربّكم الأعلى». تكاد تختصر تلك العبارة ما يفعله أبيض داخل وزارته وكيف يقرّر «مقاسات» الخدمات وكيفية صرف الأموال التي لا يُفهم على أساس أيّ دراسة جدوى تُصرف، علماً أن هذه القرارات دونها مراحل كثيرة «ليس أقلها تدريب المراكز وفتح حسابات لها في المصارف وغيرها من الأمور التي تحتاج إلى شهور من العمل». أما الأنكى من ذلك، فهو أنه بصدد استعراض آخر الإنجازات الأسبوع المقبل مع وزير الشؤون الاجتماعية، هيكتور حجار، للإعلان عن نية الوزارة دعم 170 ألف مستفيد ببطاقة صحية ممغنطة، هو «إنجاز» آخر بالنسبة إليه، ولكن تكفي العودة بالذاكرة عهوداً إلى الوراء لاكتشاف أن هذه البطاقة سبقتها «9 نماذج بطاقات أقرها 9 وزراء سابقين ولم يستفد منها أحد... وما مِشيوا».

ماذا يحاول الأبيض أن يفعل؟ بكلمة واحدة: أن يصرف الثلاثين مليوناً المتبقية، «من دون أن يكون هناك أدنى جواب عن سؤال: هل سيكون الصرف لصالح الناس؟».

على الحافة

أيّ قوى اجتماعية جديدة ستنهض بعد الانهيار؟

حبيب معلوف

يفترض أن يكون الاستنتاج الكبير، بعد الانهيار الذي حصل على كلّ المستويات، أن لا بديل عن الدولة. هذا الاستنتاج يفترض أن تصل إليه الأحزاب في السلطة كما في المعارضة، والجمعيات القديمة والحديثة، إضافة إلى المؤسسات الدينية والقطاع الخاص وما يسمى المجتمع الدولي. ورغم أن غالبية الأحزاب التي كانت في السلطة تعتبر مسؤولة، بشكل أو بآخر، عن انهيار الدولة، وبينها بعض الأحزاب التي تعتبر بناء الدولة فكرتها المركزية، إلا أنّ معظم هؤلاء فهموا أن تحقيق هدف بناء الدولة، يعني وصولهم إلى السلطة وتوظيف من يخصهم في أجهزتها وإداراتها، وتسخير مواردها لتمويل حملاتهم الانتخابية وتنفيع المحاسيب! أما الجمعيات التي نشطت قبل الانهيار أو بسببه، وعلى هامش النزاعات الطائفية والرئاسية والسلطويّة وضعف الدولة واتهامها بالفساد، بدعم أجنبي أو من بعض القوى الاقتصادية المسيطرة التي كانت تدعم في معظمها الأحزاب التقليدية المسيطرة أيضاً... فقد بات حالها في النتيجة مشابهاً لحال الأحزاب التقليدية. معظم هذه الجمعيات التي حسبت في بعض الأوقات أنها قد تشكل بديلاً عن الدولة في تأمين الخدمات والمساعدات أو إنشاء وإدارة مشاريع صغيرة نسبياً، أضرّت بسمعتها في المجتمع بعدما تحوّلت إلى ما يشبه القطاع الخاص الذي يبغي الربح! وقد توهّم بعضها أيضاً أن انهيار الدولة وأجهزتها وإداراتها، على وقع اتهام الأحزاب المسكة بالسلطة بالفساد، هو من مصلحة قوى المجتمع المدني، إن لجهة الحصول على التمويل الخارجي (والداخلي)، أو لناحية منافسة الأحزاب على شعبيتها، تمهيداً لطرح نفسها كبديل. ولا سيما في جولات الانتخابات النيابية الأخيرة. هذه الأوهام لا تزال حية على ما يبدو بسبب زيادة فرص التمويل، إلا أنها انعدمت لناحية زيادة شعبيتها، لهذا السبب نفسه، ولا سيما بعد الانهيار وتلقّي الطبقة الوسطى ضربة كبيرة غير مسبوقة مع انهيار العملة الوطنية والرواتب وودائعها (تعويضات ومدخرات) في المصارف. خلق هذا التمويل الزائد لجمعيات المجتمع المدني على أنواعها طبقة جديدة من الموظفين الذين يتقاضون رواتب ومخصصات بالعملات الصعبة، بخلاف الطبقة التي كانت «وسطى» وباتت مسحوقة، ولا تزال تتقاضى رواتبها بالليرة اللبنانية المنهارة. خلقت هذه الجمعيات زبائنيّة صغيرة في المجتمع، شبيهة بتلك التي خلقتها الأحزاب بحركة أموال مساعداتها. كما خلق كل ذلك نفوراً وشرخاً، قد يتسبب بعزل هذه الفئة من «ان جي اوز» عن المجتمع، عاجلاً أم آجلاً. وهذا ما يشكل معوقاً أساسياً لأي نشاط تغييري ولأي إسهام حقيقي من قوى المجتمع في إعادة بناء الدولة، لأن أموال هذه المنظمات ومعظم مشاريعها شبه الوهمية (بالنسبة إلى المجتمع) أسهمت، ليس في هدر مال المساعدات فقط، بل في هدر المعنى الأساسي لمبرر وجودها كقوة ثالثة بين الدولة والقطاع الخاص، والدافع الحقيقي عن مصالح المجتمع ومقوّمات الحياة في آن. كما أهدرت معنى القضايا التي تحملها من حماية البيئة إلى حماية سلسلة حقوق الإنسان على أنواعها، إضافة إلى الفئات الاجتماعية المختلفة من نساء وأطفال ومعوقين ومودعين (أخيراً)، بالإضافة طبعاً إلى قضايا اللجوء وتمويلاتها وبرامجها التي تحتاج إلى مساحة خاصة لمناقشتها مع حقوق المثليين... الخ

بعد الانهيار يفترض إعادة النظر في كل شيء، ولا سيما من جانب ما يسمى الحركات الاجتماعية المتنوّعة الاهتمامات والقضايا، وتصحيح المسار الانهياري لعلاقتها مع المجتمع مع أيضاً. ولهذا التصحيح شروطه المتعددة التي تبدأ بإعادة النظر بعلاقاتها مع نفسها وإعادة تقييم دورها وأهدافها، أو بعلاقتها مع المجتمع الذي ادّعت تمثيله قبل أن تصل إلى حالة العداء، أو بعلاقتها مع الجهات المانحة وبرامجها. وهذا الموضوع الأخير يحتاج إلى تفكيك ونقاش صريح، إذ يعتبر أيضاً مساهماً رئيسياً، بشكل مباشر أو غير مباشر، في هدر المال والمعنى والثقة. فغالباً ما موّلت الجهات المانحة مشاريع تتعارض - أو لا تتوافق - مع الأجندات الوطنية التي يفترض أن تحملها المنظمات بحسب برامجها وأولوياتها وحاجاتها الوطنية. وهذا موضوع مزمن نجحت الجهات المانحة في فرضه على معظم المنظمات من دون نقاش، وسلّمته إلى وسطاء، ومحترفي تقديم مشاريع للتمويل بعدما درّبتهم بداية على السير في أجنداتها، وخلقت معهم زبائنيّة وتبعية معينة، يسميها البعض تخصصات، من نوع آخر، منفصلة تماماً عن متطلبات المجتمعات الحقيقية. وهنا حصلت عملية تواطؤ غير مباشرة تحتاج إلى إعادة تفكيك. فليس الفساد هو السبب الحاسم لنقل الدول المانحة بعض تمويلاتها من الدول إلى الجمعيات. لعل موضوع شح التمويل هو السبب أيضاً، إضافة إلى كشف فساد السلطات المحلية والجمعيات أيضاً. وعدم مساءلة الجمعيات الصغيرة الدول الكبرى حول ارتكاباتها الكبيرة. فالدول الصناعية الكبرى التي تعتبر المساهم الأكبر في المساعدات تسببت، من خلال تقدمها وصناعاتها الثقيلة وانبعاثاتها... في تغير المناخ وفي الكثير من الكوارث المناخية التي لا تستطيع الدول النامية تحمّل تبعاتها. وبدل أن تدفع تعويضات كبيرة عن تلك الكوارث، ترضي الجمعيات الصغيرة بمشاريع صغيرة مع ادعاءات ودعايات كبيرة تغطي بها ارتكاباتها بأرخص الأثمان... ثم تعود وتضع يدها (عبر شركاتها) على أهم الموارد لهذه البلدان (نفط وغاز ومياه ومعادن وأتربة نادرة وفضاء...)، تأخذ منها الحصة الأكبر وتترك الفتات للفاسدين والتلوث للناس. فمن سيحاول وضع حدّ لهذه الدائرة الجهنمية التي كانت في أساس الانهيار؟

لقد تمّ هدر القيم والقضايا والأفكار والطموحات والآمال... وتحلّلت الثقة بين المجتمع والجمعيات، كما بين المجتمع والسلطة وأحزابها. كما بات المجتمع نفسه بين نارين، الفساد من جهة واليأس أو الهجرة من جهة أخرى. فأين المفرّ بغير العودة إلى قيم العمل الاجتماعي التطوعي المتواضع، وإعادة إنتاج قيم اجتماعية وأخلاقية جديدة تواكب كوارث العصر وهموم المستقبل؟

تقرير

المستشفى الحكومي: ممنوع عليك أن تمرض

هشام كشلي

«كلفة العملية 2500 دولار مبدئياً».

لم يكن الجواب الذي أتانا رداً على سؤال حول المبلغ الذي يمكن أن ندفعه لجراحة لِيد عمي الذي تعرّض لحادث منتظراً. صحيح أننا كنا نتوقّع أن الكلفة ستفوق قدرتنا على الدفع، لكن الـ 2500 لم تكن من ضمن حساباتنا. لذلك كانت الصدمة «عمومية»، واستلزم الأمر بعض الوقت لنستفيق من هولها، إذ إن كلفة بتر لأوتار في اليد باتت تُحتسب بمئات وآلاف الدولارات بسبب غياب التغطية الصحية وعجز الصناديق الضامنة.

كنا قد توجّهنا إلى مدخل الطوارئ حيث استقبلنا الأطباء بـ«قلة خلق». جلس عمي على كرسي للضيوف، وأنا واقف بجانبه أحمل «المصل». مرّ وقت طويل ونحن على تلك الحال، ننتظر سريراً وطبيباً جراحاً يكشف على المريض. بعد طول انتظار، حضر الطبيب أخيراً وعاجلنا بصدمة أخرى: الحالة بحاجة الى طبيب تجميل، ولا يوجد طبيب بهذا الاختصاص في المستشفى، وحتى لو تأمّن الطبيب، ليس هناك مكان لإجراء العملية.

بعد الصدمة المزدوجة، وقليل من الإسعافات الأولية، كان لا بد من الخروج من الباب نفسه الذي دخلنا منه، لنبدأ رحلة بحث عن مستشفى خاص و«رخيّص وكويّس».

تركت الأزمة ندوباً واضحة على المستشفى الأكبر في العاصمة، والذي يعاني من نقص حادّ مزدوج: في الأمكنة وفي عدد الأطباء الذين هجروه بسبب تدني أجورهم. أدّى ذلك إلى تقليص خدمات بعض الأقسام بشكل كبير. وإلى شبه إقفال لأقسام جراحة الأعصاب وجراحة القلب والجراحة التجميلية. ويوضح مصدر في المستشفى أن بعض الأقسام لا أطباء اختصاص فيها لبعض العمليات، و«المستشفى اليوم يتكل على الأطباء المقيمين وعلى طلاب اختصاص الطب في الجامعة اللبنانية المتدربين الذين لا يتقاضون أجوراً كأجر الطبيب المختص أو الجراح»، لافتاً إلى أن «الخلل في طريقة عمل المستشفى أدّت إلى الاتكال على هذه الفئة لرعاية المرضى، في حين أن المختصين لا يمرون على المستشفى إلا لفترة وجيزة وأحياناً لا يحضرون». أما نقص الأمكنة فلا يُقصد به الغرف، بل مستلزماتها ومعداتها وفريق العمل اللازم للاعتناء بالمريض. وبسبب نقص الأدوية والمستلزمات، وقلة العمال والضغط الكبير على المستشفى، «يحدث أن ينتظر المرضى في ممرات قسم الطوارئ ساعات طويلة من دون أن يحظوا بنعمة الدخول».

المدير العام للمستشفى، جهاد سعادة، قال لـ«الأخبار» إن المستشفى «يعاني بالطبع من أزمة أمكنة، نتيجة ضغط المرضى بسبب الكلفة المتدنية للخدمات». أضف إلى ذلك المعاناة الدائمة من نقص التمويل من الدولة، بحيث لم يبق من هذه الأخيرة سوى عبارة «الحكومي» الملحقة باسم المستشفى. أما في ما يتعلق بالأطباء، فـ«الأزمة شاملة، ونصف أطباء المستشفى هاجروا بحثاً عن فرص أفضل، أما من بقوا فيعملون في مستشفيات أخرى نظراً إلى تدني الرواتب في «الحكومي» والتي لا تتجاوز 200 دولار، ما يؤثّر على الجاهزية في أي وقت».

في مطلع الأزمة، كان يمكن التعويض عن التمويل الحكومي بالدعم الدولي، إلا أن هذا الأخير «توقف منذ الحرب الأوكرانية مع تغيّر الأولويات لدى المنظمات الدولية». لذلك، فإن العجز الذي يواجهه المستشفى نتيجة ارتفاع كلفة المواد والمستلزمات ورواتب الموظفين والأطباء، «يضعنا أمام خيارين: إما رفع الكلفة على المرضى أو تدني جودة الطبابة»، بعدما بات العمل في المستشفى الحكومي ثانوياً بالنسبة إلى معظم أطبائه.

(أرشيف ـ الأخبار)

حليم بركات: مثقّف خارج السياق الأكاديمي والأدبي

أسعد أبو خليل *

لم يحظ حليم بركات في حياته، ولم يحظ في مماته، بما يستحقّ من التقدير والتكريم. ولم يكن حليم بركات من الذين يروّجون لأنفسهم في الإعلام أو في الثقافة أو المنابر. هذا رجلٌ لم يحسن أداء لعبة الظهور والادعاء والتبجّح. اذكرْ أول مرّة التقيتَ فيها به في واشنطن بعد وصولي لإكمال دراستي العليا في جورج تاون. كان في خجله وتردّده من الذين يجعلونك تشكّك أن الشخص الذي التقيتَ به بالفعل حليم بركات. حليم بركات كان، غير ما يظهر في كتاباته، وحليم بركات كان غير ما يظهر في سلوكه الاجتماعي. تظنّ أنّه متردّد وخجول إلى أن تراه على منبر يفنّد بحدّة وسخرية لاذعة المزاعم الصهيونيّة. ينطقُ بقوّة وحزم، لكن من دون فصاحة وطلاقة شفهيّة (بالإنكليزيّة أو حتى بالعربيّة، اللغة التي أبدعَ فيها كتابةً وأدباً). هذا الذي يظهر كأنه ضعيف في الشكل كان له إرادة وشكيمة فولاذيّة. أصيبَ حليم بركات بالألزهايمر في سنواته الأخيرة، ولعلّ ذلك حماه من متابعة أخبار النكبات والكوارث التي لحقت بالعالم العربي والعالم أجمع.

> تعرّض لظلم في حياته في أكثر من محطة. حوربَ في الجامعة الاميركية في بيروت بسبب جذريّته ومبدئيّته وثوريّته، وتركَ لبنان متحسّراً. كذلك تعرّض للظلم في الأكاديمية الاميركية قبل أن يستقرّ في «مركز الدراسات العربية المعاصرة» في جامعة جورج تاون

كان عندما يزور كاليفورنيا يطلبُ من ابن شقيقته، الزميل بشارة دوماني، الاتصال بي للقائه. وكنا نلتقي في مقهى ميلانو في بركلي (نفس المقهى الذي كنتُ التقي فيه مع عامر محسن للتخطيط لضرب مؤامرات الأعداء). وكنتُ أسرّ جداً للقائه لأنني كنت أعلمُ أنني التقي بناشط وأكاديمي وأديب مجتمعيّ في شخص واحد يتمتع بالدماثة والخلق الحسن وروح النكتة والسخرية. أذكرُ في آخر لقاء لي معه أنني سألتُه: بناءً على ما مرّ عليكَ في حياتك، هل نحن في أسوأ مرحلة من تاريخنا العربي المعاصر؟ أجابني من دون تردّد: بلا شك، هذه أسوأ مرحلة على الإطلاق، وكان ذلك قبل مرحلة التحالف الإماراتي مع إسرائيل وقبل تحويل مشروع السلام العربي إلى مشروع التطبيع مقابل لا شيء. وسألتُه أيضاً بحشرية الطالب السابق: كيف كنتم تتابعون الأخبار في العالم العربي في الستينيات عندما كنتَ تتابعُ دراستك الجامعيّة في جامعة ميشيغان، ولم يكن هناك إنترنت ولا وسائل الاتصال بالعالم العربي؟ أجابني أن ذلك كان من أصعب ما مرّ به الطلاب العرب في حينه وأنهم كانوا يتعاونون ويتضامنون من أجل توزيع الصحف والمشاركة في قراءتها عبر الولايات المنتشرة. قال إنهم كانوا يأتون بجريدة من لبنان، من تاريخ يعود لأشهر مضت، وكانوا يقرأونها بلهفة المشتاق، ثم يرسلونها من مدينة إلى أخرى، وهكذا دواليك إلى أن تصل لهم بأهونة يكاد الحبر فيها يكون سريّاً. قال إن تسقّط الأخبار كان من أصعب تحدّيات الدراسة في أميركا في حينه.

حليم بركات كان قوميّاً سورياً، ومثل صديقه هشام شرابي، حافظ على ولائه للعقيدة ولرسالة أنطون سعادة طوال حياته. لا يمكن فهم حليم بركات من دون فهم تأثير الحزب السوري القومي الاجتماعي عليه. حمل أسمى صفات التنظيم والعقيدة، من ناحية المبدئيّة والصلابة والحزم والإصرار. كما أن قضيّة فلسطين بقيت على مركزيّتها عنده طوال حياته، ولم يثق بإمكانيّة إصلاح النظام اللبناني يوماً. حليم بركات درس في الجامعة الأميركية في بيروت، كما أنه مارس تعليم اللغة العربيّة في مدرسة الآي سي. وكانت المفارقة أن الرجل، الذي أتى من خلفيّة فقيرة في سوريا، مارس التعليم في مدرسة النخبويّة اللبنانية، والعربيّة في حينه. وكان محبوباً من تلاميذه بشهادة من كتبَ عنه مثل معن بشور. بعد إكماله شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة ميشيغان، عاد حليم بركات إلى بيروت ودرّس في الجامعة الأميركية. وهزّت هزيمة 1967 حليم بركات من أساسه وتركت في شخصيته وفي كتاباته الوقعَ الكبير. وكان أوّل من درّس (أكاديميّاً من خلال دراسة ميدانيّة) اللاجئين الفلسطينيين بعد الهزيمة، ونشرت «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية» له كتاب «نهر بلا جسور» عن اللاجئين. وكتب في عام 1960 كتاب «ستة أيام» وتوقّع فيه ما جرى في الهزيمة في ما بعد.

نجربته في الجامعة الأميركية في بيروت كانت مرّة، ونبعت مرارتها من مبدئيّته والتزامه بالقضية الفلسطينية والتغيير في سوريا والعالم العربي. حوربَ حليم بركات بشدّة من قبل المحاور الرجعية في الجامعة بشخص شارل مالك وزميله في دائرة العلوم الاجتماعية، سمير خلف. عملاً الاثنان، كما أخبرني أكثر من مرّة، على التنكيل به والعمل على طرده من الجامعة. وكان يقصّ علينا تفاصيل تلك الفترة من دون غصّة أو ضغينة أو حقد. حليم مترفّع عن الصغائر. كنتُ أقول له إن الظلم الذي لحق بك يزعجني أكثر مما يزعجه، وكان يلوّح بيده بما معناه أن ذلك حدث في مرحلة ماضية. كان حليم بركات المثال المضاد للأستاذ المرغوب فيه في الجامعة الأميركية في بيروت. بركات عكس السنيورة الأكاديمي. كان فقيراً، فيما كان الكثير من الأساتذة يأتون من خلفيات نخبويّة. كان مشاكساً، فيما كانت الطاعة واجبة. كان معارضاً في مكان كان الولاء فيه سائداً. كان ثورياً، فيما كانت الاستكانة من معايير الترقّي والتثبيت في الجامعة، وكان ثورياً في مؤسّسة الثورات المضادة. كان مؤيّداً للحركة الطلابية، فيما كان الأساتذة في أكثرهم من طاقم الإدارة المتسلّطة. سمير خلف وشارل المالك، المسؤولان عن غربة حليم بركات عن بلاده، فعلاً ما كانت الإدارة (والإدارة الأميركيّة) تريد تحقيقه في الجامعة: تنفيذ تطهير ماركثي ضد المشاغبين مثل بركات. مثل هشام شرابي، كان حليم يريد العودة إلى الوطن ويحلمُ بها، وحدّثني عن المنزل الذي بناه في الكفرون. عاش الغربة، ولعلّه كان أوّل من كتبَ عن مفهوم غربة الفرد في العالم العربي. ومثلي ومثل غيري، بقي بركات عربيّاً يقطنُ أميركا وليس أميركياً من أصل عربي يقطن أميركا.

في كتاباته عن النظام السياسي اللبناني، كان حليم بركات من غير مدرسة إيلي سالم وهو الذي كتب مؤلفه الشهير «تحديث من دون ثورة»، وقد لهجَ فيه في مديح النظام السياسي اللبناني. حليم بركات كتبَ في عام 1973 مقالة شهيرة في مجلة «ميدل إيست جورنال» بعنوان: «الاندماج السياسي والاجتماعي في لبنان». وتحدّث حليم عن الطائفيّة في لبنان وعن النفاق في طمس ظواهر الطائفيّة، مستشهداً باغنية صباح «مرحبتين مرحبتين» وبين هالدبّكي وين. وين محمود وين معروف، وين الياس ووين حسين». وبعد ترحيله عن الجامعة الأميركيّة، رحل بركات إلى أميركا ودرّس في جامعة تكساس، وأنهى كتابه عن الأهواء السياسيّة الطارئة في لبنان. وكانت من أوائل الدراسات الأكاديمية عن التوجّهات السياسية للطلاب. هشام شرابي كان الذي أنجذ حليم بركات في غربته الصعبة وساهم في تأمين مركز تدريسي له في «مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون» حيث علّم حليم حتى تقاعده (وكان المركز إلى أن تقاعد شرابي ومايكل هدسون وحنا بطاطو، واحة بين مراكز الدراسات المعنيّة بدراسة الشرق الأوسط من حيث تضاده مع التوجّهات الاستشراقيّة والصهيونيّة). كان المركز، عندما كان شرابي فيه، مركز الصفوة، وكان سعد الحريري من تلاميذه. ونصحه ذات مرّة قائلاً: أنت في صف للدراسات العليا وعليك النطق في الصف والمشاركة في الحديث، وإن قليلاً، لكن الأخير كان مشغولاً بالنظر من النافذة إلى دراجته النارية الجديدة.

حليم بركات ليس معروفاً كما يجب أن يكون. هو مثال المثقّف المبدئي الذي لم يتغيّر عبر السنوات. حليم بركات اليساري القومي السوري بقي محافظاً على مبادئه ولم يتغير منذ أن عرفته قبل 40 عاماً. خسر حليم، مثلي، عدداً من الأصدقاء والرفاق الذين تساقطوا أو تحوّلوا عبر العقود، وكان ذلك يثير فيه السخرية أكثر مما يثيرُ فيه الحنق. لم يرتبط حليم بركات بنظام ولم يروّج لنظام. وهو مثّل نسقاً جميلاً من التزاوج والتواؤم بين القوميّة السورية والقوميّة العربية، لم يتناقضا في عقل حليم بركات.

لكن حليم بركات تعرّض لظلم في حياته في أكثر من محطة. حوربَ في الجامعة الأميركيّة في بيروت بسبب جذريّته ومبدئيته وثوريّته وتركَ لبنان متحسراً. وتعرّض للظلم في الأكاديمية الأميركية قبل أن يستقر في «مركز الدراسات العربية المعاصرة» في جامعة جورج تاون. وحتى في جامعة جورج تاون فإنه لم يلقَ الترحاب من قبل دائرة علم الاجتماع فيها. ولو تسنّى لي مخاطبة حليم بركات اليوم لسألته، كما كنتُ أسأله، عن نظرته إلى المرحلة الحالية في التاريخ العربي. هل هي الأصعب، يا حليم؟ هل هي أبشع ما مرّ عليك من مفاصل في حياتك السياسية؟ أراكَ تهزّ رأسك موافقاً بالإيجاب، لكنني على يقين بأنك ستكون مستبشراً بصلابة وتمرّس المقاومة اللبنانية والفلسطينيّة بوجه إسرائيل. أمّا عن النظام السياسي اللبناني، فأنت يا حليم كنتَ من المبكّرين في نقده وفي عدم التعويل على الإصلاح من داخله. أنتَ، خلافاً لزملائك في الأكاديميا في الجامعة الأميركية في بيروت، شككتَ في قدرة النظام اللبناني على الصمود تماماً كما فعل صديقك مايكل هدسون في عام 1968 في كتابه «الجمهورية الهشّة». كما ظلّم حليم بركات لأن عمله الأكاديمي حرمنا (وحرمه) من إنتاجه الأدبي الذي كان سيكون أكثر غزارةً لو أنه تفرّغ للقصة والرواية، وربما الشعر أو المسرحيّة. كما ظُلم حليم بركات من قبل الحزب السوري القومي الاجتماعي في ظروف شخصيّة لا داعي للحديث عنها، لأنه لم يرد الحديث فيها.

تذكر المرائي عن حليم بركات أنه كان صديقاً وفيّاً وزوجاً مثالياً وخالاً صالحاً وأستاذاً نزيهاً ومناضلاً مثابراً. المرائي لا تذكر معاناة هذا العربي في الغربة الأميركية منذ السبعينيّات. كان حليم بركات يحب النكتة ويقهقه ويتلوّى عندما يضحك وإقعاً، وكان هذا أحلى ما أتذكّره عنه في شخصيّته. كان يضحكُ كالطفل ويزمجرُ غاضباً، لو أن صهيونياً واجهه في محاضرة أو مؤتمر.

عندما نكون في مؤتمر في واشنطن أو غيرها من المدن، كان غالباً ما يهمس لي أن هذا إسرائيلي أو أن ذلك صهيوني وكان يحذّرنا دائماً في بلاغاته كي لا نقع في المحظور. أرشدَ حليم بركات بمثاله الكثير من الطلاب العرب، لكن من دون بيانات أو صوت جهوري. وكان يتجاهل بالكامل العرب المتصهينين لأنه كنّ لهم كلّ الاحتقار. كيف يمكن أن نكرّم حليم بركات، وكيف يمكن أن نُخلد ذكراه؟ يمكنُ طبعاً إنشاء كرسي حليم بركات في «مركز الدراسات العربية المعاصرة» في جامعة جورج تاون لأنه أفنى سنواته التدريسيّة هناك، لكن الجامعة خاصّة ونخبويّة، والنفع سيبقى محدوداً جداً، طبقيّاً وقوميّاً. كما إنه يمكن إنشاء صندوق لتمويل دراسات عن اللاجئين الفلسطينيين، وخصوصاً أنه كان من الروّاد في هذا المضمار. كما إنه يمكن ترجمة أعمال حليم بركات الأدبية إلى الإنكليزية، بالرغم من صعوبة الترجمة لأن عربيّة حليم بركات كانت ذات خواص أدبية مميزة. وترجمة أدب حليم بركات إلى اللغات الأجنبية مهمّ لأن عملية ترجمة الأدب العربي المعاصر باتت تمرّ عبر قنوات سياسية تروّجُ للبيراليين فقط. أتقنَ بركات الإنكليزيّة من دون الاكتراث لإتقان لكنتها، وكان ذلك يتسبّب في تقليد ساخر للهجته من قبل بعض الطلاب اللبنانيين الذين يكترثون للهجة أكثر من اهتمامهم باللغة. لكن هذا لم يكن يثير في بركات إلا السخرية من السخرية وكان يضحك معهم أحياناً. المفارقة في شخصية حليم بركات أنه كان شديد الثورية، لكنه هادئ الطباع ولكن لم يكن يحتدّ إلا للردّ على كلام استشراقي أو صهيوني في مؤتمرات أكاديمية. حليم بركات غادرنا باكراً، ولو في سنّه المتقدّم. مثاله نادر بين المثقّفين العرب.

* كاتب عربي - حسابه على تويتر @asadabukhalil

الحوار الممنوع

سعد الله مزرعاني *

نُسب إلى مبعوث الرئيس الفرنسي، وزير خارجيته السابق السيد إيف لودريان، أنه اقترح اللجوء إلى حوار شامل حول الأزمة اللبنانية، بين الأطراف الأساسيين فيها، أملاً في تجاوز الاستعصاء المستمر منذ 2022/10/31 حتى اليوم. السيد لودريان ديبلوماسي فرنسي عريق لكنه ليس ذا خبرة في الأزمة اللبنانية. الدليل على ذلك اقتراحه الانخراط في حوار شامل لا يقتصر على الأزمة الرئاسية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ربما: إلى أزمة النظام السياسي القائم نفسه.

بدءاً ينبغي أن يكون في ذهن وذاكرة أي مسؤول فرنسي أن سلطات بلاده المنتدبة على لبنان وسواه في المنطقة، بعد الحرب العالمية الأولى، هي التي أرست أسس النظام السياسي القائم والذي تتوزّع المواقع السياسية والإدارية فيه وفق كوتا طائفية ومذهبية: نصاً أو عرفاً. وهي ما زالت ترعاه، بهذا الشكل أو ذاك، حتى وقتنا الحالي.

ثانياً، فات المبعوث الرئاسي الفرنسي، أن تعميق النقاش وتوسيعه وصولاً إلى البحث في أسس النظام، هو أمر مرفوض، مبدئياً وكلياً، من قبل كل من تعاقب على السلطة في لبنان، خصوصاً في العقود الثلاثة الأخيرة. ذلك يعني أنه لن يجد من يستقبله في زيارته المقبلة إذا اختار عنوان البحث في مسؤولية هذا النظام عما أصاب لبنان وشعبه من الأزمات والتوترات السياسية والأمنية المتواصلة، منذ الاستقلال، ومدى الاستعداد للتفاهم على ما ينبغي اتخاذه من خطوات إصلاحية لتدارك الانهيار المخيف الراهن ولوقف الكارثة المفتوحة، بالفئوية الداخلية والاستغلال الخارجي، على أسوأ الاحتمالات.

قصة ذلك معروفة للقاصي والداني. لم يحصل إجماع في لبنان كذلك الذي حصل بين حكامه المتعاقبين منذ «الطائف» وإلى اليوم، على تعطيل إصلاحات تلك التسوية التي اندرجت في الدستور نصاً ملزماً ذا توقيت وإجراءات وآلية. حصل ذلك في مرحلة الإدارة السورية وبدعم منها. حصل ذلك، أيضاً، في مرحلة الرعاية الأميركية حين انتقل مركز القرار من عنجر (السوري) إلى عوكر (الأميركي). لم يكتفِ النافذون بتعطيل البنود الإصلاحية التي أدّى بترها إلى تكريس وترسيخ المحاصصة، بل هم تنافسوا على التمسك بالتقاسم الطائفي وبتعميمه على كل الحقول والمستويات (الرسمية والمدنية)، وصولاً إلى المجاهرة، من قبل «التيار العوني»، ومن موقعه في السلطة، بالسعي لتعديل الدستور، ولاستعادة «ضمانات» (امتيازات) ما قبل «الطائف»، أو على الأقل، تثبيت التقاسم الطائفي والمذهبي، بشكل دستوري مانع لأي إصلاح أو اجتهاد مماثل حالي أو مستقبلي!

في المتداول، أن ممثلي «حزب الله» نصحوا المبعوث الفرنسي عدم توسيع مجالات الحوار، والاقتصار فقط على ما يتصل، مباشرة، بالاستعصاء الرئاسي الحالي. لجهة «المواصفات» والمهمات المباشرة. معروف أنه ليس في أولويات «حزب الله» طرح مسألة تطبيق المواد 95 و22 و24 بشأن «إلغاء» الطائفية السياسية. لكن الأمر مختلف بالنسبة لفريق الـ 32 الذي انطلق من منزل ومن ترشيح النائب ميشال معوض والذي تتقدّمه «القوات» و«الكتائب» وأشرف ريفي. هذا الفريق يرفض مبدأ الحوار من أساسه بذريعة أنه يهمش مؤسسة مجلس النواب. هو يعتقد أنه قد يتمكن، مع حلفاء قائمين أو محتملين، من التوصل إلى توفير أكثرية 65 نائباً (حتى من دون تأمين نصاب الثلثين)، لإسقاط المرشح النائب السابق سليمان فرنجية والإتيان برئيس مدعوم، ضمناً أو علناً، أيضاً، من قبل واشنطن التي، وإن تراجع نشاطها نسبياً، إلا أنها تبقى الموجّه والمحدد لسياسات الفريق المناوئ لانتخاب فرنجية بوصفه «مرشح حزب الله».

> مقاربات جديدة ينبغي أن يمليها هذا الواقع، وتلك المتغيرات في مجرى صراع ضار في المنطقة والعالم من أجل فرض استمرار توازنات قديمة أو من أجل تغييرها

ينتسب هذا الموقف، في الواقع، إلى تقليد عام يمكن أن يمارسه الجميع، في تغليب الرغبة على الواقع، واعتماد التفسير الانتقائي لـ«الطائف» وللدستور. وفق الفئويات والتوجيه الخارجي، لا وفق المصلحة الوطنية والنصوص الملزمة والواضحة. معروف أن اللجوء إلى تعطيل النصاب، أو التهديد به، قد مارسه الجميع من دون استثناء. ولذلك تسقط حجة من يطالب بفهم خاص للنص أمام السابقات والعرف وبعض الالتباس الذي بدّدته تلك السابقات والممارسات في ظروف مماثلة: لجهة بدء الجلسة وانتهائها وضرورة توفر النصاب نفسه لبدء جلسة جديدة.

يستطيع فقط أن ينتقد هذه الآلية من اتخذ ويتخذ الآن موقفاً ثابتاً لجهة ضرورة تطبيق نصوص الدستور جميعها بما يؤدي إلى تحرير الإدارة العامة للدولة، سياسياً ووظيفياً، من الطائفية السياسية، التي اعتمدتها وكرستها الطبقة البورجوازية الكبرى أداة لسيطرتها على موارد الدولة وعلى مؤسساتها وعلى الحياة السياسية والاقتصادية عموماً. للأسف أن تلك القوى ضعيفة ومهمشة وغير ذات موقع في المشهد السياسي المحتدم الراهن رغم حضورها الكبير في السابق؛ قوة تغيير إصلاحي أو جذري، في مراحل مهمة من التاريخ اللبناني المعاصر. ينطبق هذا الأمر على «التغييريين» الذين تسلّق معظمهم الانتفاضة الشعبية قبل أربع سنوات، بدافع من طموح شخصي أو بتوجيه خارجي. هؤلاء، في الغالب، اكتفوا ببعض المواقف الاحتجاجية الهامشية والاستعراضية؛ لتأكيد تمايزهم المحدود أو معارضتهم الجزئية والمؤقتة (أيّد معظمهم المرشح أزعور) خلافاً لشعار: «كلن يعني كلن» الشهير.

الواقع أن القوى الحاكمة التي توحّدت دائماً في الدفاع عن النظام، وفي منع تطويره، وفي خرق الدستور، لم تكن موحدة إلا نادراً بشأن توزيع المغانم السياسية والمادية. الشأن الخارجي كان، أيضاً، حاضراً دائماً في مقدمة أسباب الخلاف. الاستقواء بالخارج هو الوجه الآخر للالتحاق به وللخضوع لإملاءاته. في مراحل احتدام الصراع الإقليمي والدولي وقعت صراعات وحروب دامية هدّدت الوحدة الداخلية إلى الحد الأقصى. التدخل الخارجي، الأميركي خصوصاً، لاستغلال الأزمة، بعد رعاية وتغذية طويلة لها كي تتفاقم وتتفجّر، رافقه، في المراحل الأخيرة، جهد مثابر ووقح وشامل لتوظيفها في خدمة المشروع الأميركي في المنطقة. وهو مشروع هيمنة، من جهة، ودعم دائم للعدو الصهيوني، من جهة ثانية.

مقاربات جديدة ينبغي أن يمليها هذا الواقع، وتلك المتغيرات في مجرى صراع ضار في المنطقة والعالم من أجل فرض استمرار توازنات قديمة أو من أجل تغييرها. في الأثناء، وحتى إشعار آخر، وكوارث ومخاطر أسوأ، بسبب الفئوية والمحاصصة والتبعية... سيبقى الحوار الداخلي الصحيح والمطلوب والإنقاذي مرفوضاً أو مؤجلاً أو ممنوعاً!

* كاتب وسياسي لبناني

فلسطين

«القسام» رسمياً وعلنياً على خطّ الاشتباك

الضفة تفتتح مرحلة مواجهة جديدة

رام الله ـ **أحمد العبد**

أسبوع عريض من الإخفاق الأمني والاستخباري والعسكري عاشته إسرائيل، حمل معه ضربات في أكثر من مكان وعلى أكثر من صعيد، بدءاً من مخيم جنين حيث شنّ الاحتلال عدواناً انتهى بفشل ذريع، وصولاً إلى عمليات طالت تل أبيب وأبرز أركان المشروع الاستيطاني في الضفة، من دون إغفال الجبهة الشمالية. ويبدو أن ما بعد معركة جنين الأخيرة لن يكون كما قبلها؛ فقد حملت 50 ساعة من الصمود والمقاومة في أزقة المخيم وشوارع المدينة، تداعيات لم تقتصر على تعزيز فشل جيش العدو في القضاء على المقاومة واجتثاثها، بل تعدّته إلى تظهير تطوّر نوعي في أداء المقاومة في الضفة الغربية المحتلة، والتي تتّجه نحو مزيد من التصاعد والزخم، وفق ما أثبتت به عملية «كدوميم» التي نفّذها الشهيد أحمد ياسين غيظان مساء الخميس، وأدّت إلى مقتل جندي إسرائيلي. وكشف الإعلام العبري، أمس، أن جهاز «الشاباك» كان قد أعدّ قائمة بأسماء 160 مقاوماً من مخيم جنين مطلوبين للاغتيال أو الاعتقال، لكن قوات الاحتلال بمختلف تشكيلاتها، وطوال فترة العدوان، لم تصل إلّا إلى ثلاثة منهم، فيما نشرت «كتائب القسام» في المخيم، أوّل من أمس، تسجيلاً مصوراً لاستئناف وحداتها عملية تصنيع مئات العبوات المتفجرة، استعداداً للمرحلة المقبلة.

وشكّلت عملية «كدوميم» نقلة نوعية في العمل الفدائي، حاملةً في طيّاتها الكثير من التخطيط والشجاعة، إذ استهدفت مكاناً بالغ الحيوية والأهمية، وهو المستوطنة التي يعيش فيها وزير مالية الاحتلال، بتسلئيل سموتريتش. كما أنها جاءت في وقت تعيش فيه أجهزة العدو الأمنية ذروة تأهّب واستنفار، ما يدلّل على تطوّر أداء المنفّذين والمخطّطين، الذين يشي به أيضاً امتشاق المنفذ سلاحه الناري من مسقط رأسه في بلدة قبية في محافظة رام الله، وقطعه مسافة

تلبي العمليات الآتية من الضفة بأن المرحلة المقبلة ستكون خبلى بالتصعيد (أ ف ب)

> تعدّ «كدوميم» تجمّعاً لمستوطنات متجاورة مقامة على أراضي قرية كفر قدوم منذ عام 1975

كبيرة بمركبته الشخصية، وصولاً إلى مدخل «كدوميم» بين نابلس وقلقيلية، حيث قام بالهجوم. وفي هذا الإطار، ذكرت وسائل الإعلام العبرية أن المنفّذ سار في طريق لا تسلكها سوى مركبات الأمن والجيش، وهو ما يحمل جرأة كبيرة. وممّا زاد العملية دلالة، تبنّيها من قِبَل «كتائب القسام»، الذراع العسكرية لحركة «حماس»، بشكل رسمي وعلني، خلافاً لما جرت عليه العادة سابقاً، الأمر الذي ينذر بتغيير في طبيعة المواجهة، قد يدفع إسرائيل، في ظلّ فشلها في إيقاف مسلسل العمليات، إلى الردّ في ساحات أخرى، قد يكون قطاع غزة من بينها، على غرار ما جرى قبل شهور حين اغتالت قادة من «سرايا القدس»، الذراع العسكرية لحركة «الجهاد الإسلامي» في القطاع.

وإذ جاءت العملية لتؤكّد أن الردود على جرائم الاحتلال لن تتأخر، وستأتي بكلّ شكل وفي أيّ مكان، فهي حملت رسالة مخصوصة إلى سموتريتش الذي يعدّ أحد أبرز عرابي الاستيطان في الضفة، جلّاها بيان «الكتائب» الذي جاء فيه أن «القسام كاد يطرق باب بيتك». وفي ردّه على تلك الرئاسة، أعلن سموتريتش أن الحكومة ستعمل على تسريع خطط بناء 1100 وحدة استيطانية بالقرب من موقع الهجوم في «كدوميم»، قائلاً: «أقول لحماس إنني لست خائفاً منها، وسأواصل العمل في الحكومة للسماح لقوّاتنا بتدميرها»، وفق تعبيره. أمّا قادة جيش الاحتلال فقد الزموا جميع الجنود العاملين في أنحاء الضفة كافة، سواء في الدوريات أو أبراج المراقبة أو الحواجز، بوضع رصاصة في بيت النار ابتداءً من صباح اليوم، بعدما تمكّن منفّذ الهجوم الأخير، رغم صغر سنّه، من إطلاق النار من مسافة صفر على رأس جندي إسرائيلي من «كتيبة جفعاتي» وقتله، وإطلاق النار على حارس الأمن كذلك، ومن ثمّ الانسحاب من المكان واستكمال طريقه ليشتبك بعدها مع قوات الاحتلال ويرتقي شهيداً.

وتعدّ «كدوميم» تجمّعاً لمستوطنات متجاورة مقامة على أراضي قرية كفر قدوم منذ عام 1975، وهي تخضع لمجلس محلّي استيطاني واحد، وتقع على بعد 23 كلم من مدينة قلقيلية، كما أنها مقامة على أكبر حوض مائي في الضفة الغربية، وتشهد بشكل دائم استنفاراً أمنياً وعسكرياً، وانتشاراً لقوات الأمن والمستوطنين المسلحين. ولذلك، فإن ضربها بهذا الشكل، بعد عملية «عيلي» التي نفّذها أيضاً عنصران من «القسام»، يعدّ إشارة إلى أن المقاومة بدأت بتوجيه عملياتها بشكل مركّز نحو المستوطنات والمستوطنين. وقرأ الإعلام العبري في تبنّي «القسام» عبر بيان رسمي وبتغريدة من الناطق بلسانها «أبو عبيدة» - بعد غياب لشهور -، لعملية «كدوميم»، التي جاءت بعد ساعات فقط من عملية الدهس والطعن في تل أبيب التي نفّذها الشهيد عبد الوهّاب خلايلة - وهو من حركة «حماس» - بالتزامن مع العدوان على جنين، «أمراً مفاجئاً، وغير مسبوق»، إذ قالت إذاعة «كان» العبرية إن حركة «حماس» في الضفة تقف منذ فترة خلف سلسلة عمليات خطيرة أدّت إلى مقتل العديد من المستوطنين والجنود، و«اليوم تنتقل من الوقوف السري خلف بعض الهجمات إلى التبنّي العلني، وكلّ ذلك تتحمّل مسؤوليته الحكومة اليمينية»، بينما أشارت «إذاعة الجيش» إلى أن بيان «القسام» ينبئ بأن «اختيار موقع العملية لم يكن عرضياً، بل جرى اختيار المستوطنة التي يعيش فيها سموتريتش».

وجاء هذا التطوّر النوعي بعد إطلاق 5 صواريخ من قطاع غزة، وتسجيل تسخين على الجبهة الشمالية أيضاً، حيث أطلق صاروخان موجّهان مضادان للدروع من نوع «كورنيت» من جنوب لبنان، قال الاحتلال ابتداءً إنهما عبارة عن لغمين قديمين انفجرا، قبل أن يعود لاحقاً ويقول إنهما قذيفتا «هاون»، ومن ثمّ يعترف أخيراً بأنهما صاروخان مضادّان للدروع. وفي تعليقه على ذلك، قال المراسل العسكري لـ«القناة 14» العبرية، هاليل روزين: «على غير العادة، حماس تتبنّى هجوم كدوميم، بعد إطلاق صاروخ مضادّ من لبنان. إسرائيل تواجه تحدياً داخلياً وخارجياً بشكل غير مسبوق»، فيما توعّد وزير الحرب، يوآف غالانت، بأن إسرائيل ستردّ «بطرق علنية وسرية» وفي المكان والزمان المناسبين. على أيّ حال، تشي المعطيات الآتية من الضفة بأن المرحلة المقبلة ستكون حُبلى بالتصعيد، سواء في عمليات المقاومة ضدّ المستوطنات وفي الداخل المحتل، أو في عمليات الاغتيال والقتل والإعدامات الإسرائيلية للمقاومين، على غرار ما جرى صباح أمس في الضفة الغربية، وتشهد بشكل دائم استنفاراً أمنياً وعسكرياً، وانتشاراً لقوات الأمن والمستوطنين المسلحين. ولذلك، فإن ضربها بهذا الشكل، بعد عملية «عيلي» التي نفّذها أيضاً عنصران من «القسام»، يعدّ إشارة إلى أن المقاومة بدأت بتوجيه عملياتها

قضية

من الفقر العام إلى الفقر المدقع

درَك جديد في الهاوية السورية

منذ ثلاث سنوات تقريباً، ومعدّل انتشار الفقر العام في سوريا لم يتغيّر إلّا قليلاً، حيث بقي يدور حول عتبة 90%، على رغم الارتفاع الكبير والمستمرّ في معدّل التضخم، وهو ما يطرح تساؤلات عن ماهية مرحلة ما بعد الفقر العام، والتي باتت تتحكّم بحياة السوريين ومستقبلهم

زياد غصن

مع استمرار تدهور الأوضاع المعيشية والاقتصادية في سوريا منذ حوالي ثلاث سنوات، فإن استخدام مصطلح «الفقر العام» لم يَعُد أميناً في توصيف حال غالبية السوريين. ولعلّ ما يؤكد ذلك أن التقديرات البحثية غير الرسمية والأممية كانت تتحدّث في عام 2020 عن ارتفاع معدّل الفقر العام إلى 90%، لكن بين نهاية ذاك العام ونهاية العام الماضي، زاد وسطي الأسعار بأكثر من سبعة أضعاف، فيما التقديرات المتعلّقة بمعدل انتشار الفقر بقيت على حالها، أو أنها زادت عن المعدل بشكل قليل ليُراوح ما بين 92 - 93%، وهو ما يعني أن الفقر العام بلغ ذروته بين السوريين، ولم يعد هناك من منتسبين جدد إلى دائرته. ويثير الأسعار خلال فترة الحرب، يتبيّن بحسب دراسة لـ«المركز السوري لبحوث السياسات»، «ارتفاع أسعار الأغذية بنحو 91 ضعفاً في منتصف عام 2022 مقارنة بعام 2009، في حين ارتفع الرقم القياسي العام بنحو 76 ضعفاً، بفارق 15 ضعفاً، علماً أن فرق التضخم الغذائي عن التضخم العام ازداد من 11 ضعفاً في عام 2021 إلى 17,4 ضعفاً في منتصف 2022». ويوضح المركز أن تلك الأرقام تؤشّر «إلى تركّز الأثر الأكبر لانعكاسات تسارع انهيار الأمن الغذائي، وإلى تغيُّر هيكل الفقر في سوريا بانزلاق السوريين من حالة فقراء ضمن خط الفقر الأعلى أو الفقر الأدنى إلى فقراء تحت خط الفقر المدقع»، محذّراً من أن «استمرار ارتفاع الأسعار بالوتيرة نفسها سينتقل بمزيد من الفقراء إلى قاع الفقر المدقع، فيما ستظهر أنماط حرجة من الفقر المدقع، كحالات الجوع».

وعليه، يمكن القول إن الأثر الأكبر للمتغيّرات الاقتصادية السيئة التي شهدتها البلاد ولا تزال، يكمن في تبدّل مواقع الأسر داخل خطوط الفقر الثلاثة المعروفة عالمياً. إذ تدلّ المعطيات على توسع قاعدة الفقر المدقع، والذي يُستخدم كمؤشر إلى الحرمان من الغذاء، وذلك على حساب المؤشّرين الآخرين: الفقر الشديد المعبّر عن عدم القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية للبقاء على قيد الحياة، والفقر العام الذي يتضمّن كلّ أشكال الفقر وخطوطه. وبحسب عميد «المعهد العالي للدراسات والبحوث السكانية»، جمعة حجازي، فإن «الفقر الغذائي هو من أهمّ المؤشرات الدالة على الوضع الاقتصادي في البلد المعني، وهو يُقسم إلى قسمين: الفقر الغذائي الأسري، والذي يعبّر عن الحالة التغذوية في الأسرة، والأفراد الذين يعانون من انعدام الأمن الغذائي، وهؤلاء وصلت نسبتهم في المسوحات الأخيرة في سوريا إلى مستويات غير مسبوقة، إذ تجاوزت أكثر من 60% من السكان،

> طيّ البلاد مرحلة الفقر العام ودخولها في دائرة الفقر الشديد أو المدقع، يحمل معه مخاطر متعدّدة

من العام إلى المدقع

على مدار السنوات الثلاث الماضية، اضطرّت معظم الأسر السورية لتغيير الكثير من عادات استهلاكها، واتّباع سياسات تأقلم جديدة تتناسب وقوتها الشرائية من جهة، ومستويات أسعار السلع والخدمات المتغيّرة بين يوم وآخر من جهة ثانية. فمثلاً، ثمّة أسر كثيرة عمدت إلى تقليص عدد وجبات الطعام اليومية إلى اثنتين أو واحدة فقط مع إعطاء أفضلية للأطفال، وأخرى استغنت عن العديد من أصناف الطعام لتقتصر على واحد أو على الخبز مع الشاي المحلّى بقليل من السكر، فضلاً عن تقليص عدد أفراد الأسرة المنخرطين في التعليم، وتراجع الاهتمام بالنواحي الصحية وما إلى ذلك. وعند التعمق في تحليل الأسعار خلال فترة الحرب، يتبيّن أن الواقع المقبلة ستكون حُبلى بالتصعيد، سواء في عمليات المقاومة ضدّ المستوطنات وفي الداخل المحتل، أو في عمليات الاغتيال والقتل والإعدامات الإسرائيلية للمقاومين، على غرار ما جرى صباح أمس في الضفة الغربية، وتشهد بشكل دائم استنفاراً أمنياً وعسكرياً، وانتشاراً لقوات الأمن والمستوطنين المسلحين. ولذلك، فإن ضربها بهذا الشكل، بعد عملية «عيلي» التي نفّذها أيضاً عنصران من «القسام»، يعدّ إشارة إلى أن المقاومة بدأت بتوجيه عملياتها

> طيّ البلاد مرحلة الفقر العام ودخولها في دائرة الفقر الشديد أو المدقع، يحمل معه مخاطر متعدّدة

أبعد من نقص الغذاء

طيّ البلاد مرحلة الفقر العام ودخولها في دائرة الفقر الشديد أو المدقع، يحمل معه مخاطر متعدّدة لا تقف عند انهيار الوضع الغذائي لأسر كثيرة لتصل إلى كارثة الجوع، وإنما تمتدّ لتشمل جوانب اجتماعية وصحية. وبحسب ما يشير إليه رئيس مجلس إدارة «الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية»، منير الحمش، فإنه في «ضوء استمرار تدهور الأوضاع الاقتصادية، فإن الوضع الطبيعي سيكون مرّبداً من الفقر المدقع ثمّ الموت جوعاً... لكن بالتأكيد فإن السوريين لن يجوعوا ما دامت لديهم إرادة الحياة». ويوضح الحمش، في تصريح إلى «الأخبار»، أن «الخلاص الفردي يمكن أن يتحقّق بجهد شخصي وبمساعدة مختلف الفعاليات المجتمعية، لكن ما يهمّ هو الحلّ المجتمعي على المدَيين المتوسط والبعيد، والذي يمكن أن يتحقق بالإرادة، أي بقرار سياسي واجتماعي بالخروج من حالة الفقر، وذلك من خلال انتهاج سياسات اقتصادية مولية للفقراء». وإلّا، فإن المجتمعات الفقيرة ستكون، كما يعتقد حجازي، «أميل إلى الكسل، والبطالة، وتدني الالتحاق بالتعليم، والجريمة والانحراف، وحتى السلوك الإنجابي سيكون ميالاً إلى الخصوبة المرتفعة والإنجاب غير المدروس». ويضيف أن «الفقراء سوف يكونون أيضاً ميّالين إلى إخراج الأولاد من المدرسة لعدم كفاية الدخل لتعليمهم، ما يعني عمالة أطفال أكثر، بالإضافة إلى خصائص أخرى غير مباشرة تتعلّق بالوعي المجتمعي والمواطنة والمشاركة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الواعية»، متابعاً أن «الفقر شرّ بأكمله، ولا يمكن لأي جهود تنموية إزاءه أن تتكلّل بالنجاح ما لم يتمّ التخفيف من حدّته، على اعتبار أن القضاء عليه أمر مستحيل في الأمد المنظور، وإنما التخفيف من آثاره ومن نتائجه قد يكون أنجع وأكثر فعالية».

عمدت اسر كثيرة الى تقليص عدد وجبات الطعام اليومية (أ ف ب)

سخط شعبي متعاظم بوجه السلطة: رام الله «تهرب» إلى الحوار

غزة ـ **رجب المدهون**

في الوقت الذي تفاقمت فيه أزمة الشعبيّة التي تعانيها السلطة الفلسطينية من جرّاء موقفها السلبي في خلال المعركة الأخيرة التي شهدها مخيم جنين، دعا رئيس السلطة الفلسطينية، محمود عباس، إلى عقد لقاء طارئ على مستوى الأمناء العامين لفصائل المقاومة، وهو ما تعاملت معه الأخيرة بحذر، مطالبةً بأن تسبق خطّةً شاملة متّفق عليها أيّ لقاء من هذا النوع. وبحسب ما علمته «الأخبار» من مصادر في السلطة، فإن حالة الغضب الشعبي التي تواجهها السلطة في الضفة الغربية المحتلّة، تفاقمت خلال الآونة الأخيرة نتيجة عدّة عوامل، أبرزها إجحام رام الله عن إبداء أيّ ردود فعل إزاء الجرائم الإسرائيلية المتواصلة، وإبقاؤها على «التنسيق الأمني» مع الاحتلال. وتضيف المصادر أن قيادة حركة «فتح» قرّرت في ما جرى في مخيم جنين أثناء تشييع شهداء العدوان الأخير، من طرد لنائب قائد الحركة، محمود العالول، وقيادات أخرى، مؤشّراً خطيراً إلى تصاعد حالة الغضب.

وتكشف المصادر أن نقاشات حادة دارت بين قيادات في السلطة ومسؤولين أمنيين تابعين لها عقب

> شملت التوصيات العاجلة المقدّمة إلى عباس البدء بحملة انتقاد واسعة لحركة «حماس»

حادثة الطرد، فيما جاء بيان «كتيبة جنين»، التابعة لـ«سرايا القدس»، الجناح العسكري لحركة «الجهاد الإسلامي»، حول اعتقال السلطة قائد كتيبة «جبع» أثناء توجهه لمساندة جنين خلال العدوان، ليصبّ الزيت على النار ويسعّر الانتقاد والسخط الموجّهين ضدّ رام الله. كما تكشف أنه للخروج من المأزق، اقترح مسؤولون على عباس البدء في حراك سياسي يهدف إلى الحفاظ على شرعية السلطة شعبياً وأمام المجتمع الدولي، ويبدأ بعقد لقاء على مستوى الأمناء العامين للفصائل في القاهرة، ثمّ ينتقل إلى جولات حوار متتالية، مع الحرص على أن يُظهر اللقاء الأول «شرعية» رئيس السلطة أمام الإعلام. وشملت التوصيات العاجلة، أيضاً، ضرورة عدم توجيه الانتقاد إلى «كتيبة جنين»، والبدء، في المقابل، بحملة انتقاد واسعة لحركة «حماس» لمنعها من استغلال ما يجري حالياً في الضفة لصالحها. وبالفعل، لم تكد تصدر الدعوة إلى اللقاء، حتى هاجم عضو «اللجنة المركزية لحركة فتح»، عزام الأحمد، حركة «حماس»، واتّهمها بأنها تضع عراقيل أمام فرصة عقد اجتماع عاجل في القاهرة. وكانت حركتا «حماس» و«الجهاد الإسلامي» ردّتا على الدعوة ببيان مشترك طالبتا فيه بوضع خطّة وطنية شاملة لمواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين، استناداً إلى «ما يملكه شعبنا من مقومات القوة والصمود، خاصة في ظلّ تصاعد المقاومة وتحقيقها

(أ ف ب)

الإنجازات على الأرض». وشدّدت الحركتان على ضرورة الاتفاق على هذه الخطّة أوّلاً، ومن ثمّ إخراجها إلى حيّز التنفيذ فوراً، بما يشمل عقد اجتماع للأمناء العامين. كما كما في اجتماعات سابقة»، داعيةً إلى أن يكون اللقاء هذه المرّة «مدخلاً لإنهاء الانقسام، وميداناً لمعالجة الشأن الداخلي وإدارة الصراع مع الاحتلال، وما يتطلّبه ذلك من إعادة بناء للاستراتيجية الوطنية التي تعيد إلى الصراع طابعه باعتباره شاملاً بين كلّ الفلسطينيين، وبين الاحتلال». وشدّدت على أن «هذا يستدعي مغادرة الرهانات الضارة على المفاوضات والاتفاقيات الموقعة مع العدو، والمباشرة بتنفيذ قرارات المجلسين الوطني والمركزي والقرارات الوطنية بإلغاء اتفاق أوسلو وما ترتب عليه من اتفاقات لاحقة، والتزامات أمنية وسياسية واقتصادية، وسحب الاعتراف بدولة الاحتلال، خاصة أنه قد بات الجميع أمام حقيقة الموقف الإسرائيلي الذي تجسّده حكومة نتنياهو قولاً وفعلاً برفض قيام الدولة الفلسطينية، بل واجتثاث التفكير بها، والدعم الذي توفره الإدارة الأميركية لهذه السياسة وللعدوان القائم على جنين وعلى الشعب الفلسطيني».

حرصت على «سرعة التحرك لمواجهة التحديات التي تواجه القضية، وخاصة استمرار مخططات تهويد وتقسيم المسجد الأقصى، والاعتداء على المقدسات الإسلامية والمسيحية، وعزل مدينة القدس وتهجير أهلها، والتوسع الشرس للاستيطان ومشاريع الضم المجنونة، وحصار قطاع غزة، وما يتعرض له الأسرى في سجون الاحتلال، إضافة إلى مخططات العدو في إنهاء الوجود الفلسطيني في الداخل المحتل».

من جهتها، رحّبت «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بدعوة عباس، مشترطةً أن يتمّ «التعامل بمصداقية وجدية مع نتائج الاجتماع، والالتزام بما يصدر عنه من توجهات وقرارات إزاء ما يجري من عدوان ومجازر في جنين، وإزاء العدوان الشامل على شعبنا وحقوقنا، ومصادرة الأراضي وتوسيع الاستيطان الذي يجسّد السياسة الإسرائيلية المعلنة بالضم الكامل لأراضي الضفة المحتلة بما فيها القدس». وحذرت «الشعبية» من أن يكون هدف الدعوة «المناورة

تقرير

تركيا توسّع حركتها الديبلوماسية 9
تثبيت للمصالحات... وتنازلات «حيث يجب»

محمد نور الدين

من بروكسل إلى كييف، ومن الخليج إلى مصر، بدأت تركيا حملة تثبيت سياساتها التي كانت قد شرعت في انتهاجها منذ ما قبل انتخاب رجب طيب إردوغان رئيساً لولاية ثالثة. وخلال أقلّ من شهر، سيكون إردوغان على موعد مع محطّات مهمة في سياق تعزيز الديبلوماسية التركية وتوسيعها في الاتجاهات كافة. وليست زيارة الرئيس الأوكراني، فولوديمير زيلينسكي، لإسطنبول أمس، ولقاؤه نظيره التركي، سوى بداية الحراك الخارجي المنتظر لأنقرة. والواقع أن هذه الزيارة غير مفاجئة؛ فالعلاقات بين البلدين جيدة، وهما يتبادلان المواد الغذائية، فيما تبيع تركيا، أوكرانيا، المسيّرات التي كان لها دور مؤثّر في إلحاق خسائر بالقوات الروسية. مع ذلك، فإن أنقرة حرصت منذ اللحظة الأولى - وهو ما كان ولا يزال محلّ إجماع داخلي - على أن تكون على مسافة إيجابية من طرفي الصراع؛ ولذا، وبينما واصلت دعم كييف بالأسلحة، وقفت ضدّ فرض الحظر الاقتصادي على موسكو، وسعت للقيام بأدوار وساطة في أكثر من ملفّ، من مثل استضافة مسؤولين من البلدين في بداية الحرب، كما نجحت في إقناع الطرفين باتفاقية مرور الحبوب من الموانئ الأوكرانية، بموافقة روسيا وتحت رقابة تركيا، إلى العالم، وهي اتفاقية كان لها دور مهمّ في الحدّ من ارتفاع أسعار الحبوب عالمياً، وفي توفيرها أصلاً، بينما مثّلت تركيا وسيطاً في تبادل الأسرى بين البلدين أكثر من مرّة. ولا تخرج زيارة زيلينسكي عمّا يشغل أوكرانيا من احتمال تعليق الاتفاقية المُشار إليها، والتي تنتهي صلاحيتها في 17 تموز الجاري، بعدما أعلنت روسيا أنها ليست في صدد تمديدها، ما من شأنه أن يحرم أوكرانيا من مصادر مالية كثيرة. لكن الأكيد أن إردوغان سيضع ثقله لدى صديقه، الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، لتجديد العمل بالاتفاقية، ولو مع بعض التعديلات، لأن في ذلك زيادة في «الوزن» التركي الدولي.

أمّا الموقف التركي من عضوية السويد في «حلف شمال الأطلسي»، فلا يزال متمنّعاً نسبياً، متراوحاً بين معارض لأسباب تتصل بدعم استوكهولم لنشاطات «حزب العمال الكردستاني» وجماعة فتح الله غولين، وآخر معترف بأن السويد حقّقت تقدّماً عبر إقرارها كلّ ما تريده تركيا من تشريعات في البرلمان، ولكنه يطالب بالتأكد من أن الأولى ستلتزم بترجمة تقدّمها على أرض الواقع، وخصوصاً أن التعهّدات النظرية هي الأسهل بالنسبة إلى أيّ دولة، وأنه لا يمكن في حال امتناع استوكهولم عن الالتزام بتلك التعهّدات، أن يعاد طردها من الحلف. والجدير ذكره، هنا، أن عدداً كبيراً من دول «الأطلسي» يمنح دعماً مادياً لـ«الكردستاني»، ويسمح للحزب ومؤيّديه بالتحرّك بحرية تحت مسمّيات مباشرة وغير مباشرة، ولا سيما في فرنسا وألمانيا واليونان، فيما لا تجد تركيا سبيلاً إلى أيّ خطوة تحول دون ذلك. وعلى رغم ما تقدّم، فإن إجماع الدول «الأطلسية» على أن السويد أوفت بالتزاماتها - نظرياً -، واعتراف تركيا بهذا الواقع، وضعا الأخيرة في موقف حرج جدّاً، وهو ما يعني أن التأخير في الموافقة على العضوية، ربّما مردّه محاولة تجيير «فضل» الموافقة إلى إردوغان شخصياً، عندما يلتقي الرئيس التركي، الاثنين المقبل، الأمين العام لـ«الناتو»، ينس ستولتنبرغ، عشية القمة الحاسمة لزعماء الحلف، والتي ستنعقد يومَي الثلاثاء والأربعاء المقبلين في فيلنيوس، عاصمة ليتوانيا. وعندذاك، سيتّضح ما إذا كانت تركيا رضخت بالمجّان للضغوط «الأطلسية» عليها، أو أنها نالت في المقابل موافقة أميركية، ولو متأخرة، على تصديق الكونغرس على قرار تحديث طائراتها من طراز «أف - 16».

> عودة تبادل السفراء بين مصر وتركيا أخيراً، مثّلت خطوة مهمّة على طريق طيّ صفحة النزاع

أمّا الملفّ الثالث، الذي يعكس استمرار جهود تركيا لضبط علاقاتها مع الخارج، فهو اتفاقها مع مصر قبل أيام على تبادل السفراء بينهما، بعد قرابة تسع سنوات من قطع علاقاتهما الديبلوماسية في عام 2014، إثر إطاحة حكم الرئيس «الإخواني» الراحل محمد مرسي، والذي ستستقبله أنقرة، في أيلول المقبل، بعد زيارة مماثلة للرئيس التركي إلى القاهرة، في شباط الماضي، هي الأولى لرئيس تركي منذ عام 2012. وفي حين أن الملفّ الليبي لم يكن على جدول أعمال اجتماع الرئيس التركي مع نظيره المصري، فإن التوتّر بين البلدين، التدخّل التركي العسكري المباشر في الحديقة الخلفية لمصر، أي في ليبيا، ومن ثمّ ترسيم الحدود البحرية بين تركيا وليبيا، وتوقيع اتفاقيات عسكرية واقتصادية بين أنقرة وحكومة طرابلس التي كان برأسها فايز السراج، وظهر نتيجة هذه الخلافات، كما الخلاف بين تركيا وكلّ من السعودية والإمارات، وبين دول الخليج وقطع عام 2017، ما يشبه «البلوك» المتشكّل من مصر ودول الخليج واليونان وقبرص اليونانية، في مواجهة تركيا وقطر.

ستلي زيارة السيسي لأنقرة، جولةٌ لإردوغان على ثلاث دول خليجية (أ ف ب)

والانتخاب اللاحق لعبد الفتاح السيسي رئيساً للجمهورية المصرية. منذ ذلك التاريخ، دخلت العلاقات في مرحلة توتر شديد، تبادل مسؤولو البلدين في خلالها النعوت القاسية؛ إذ وصف إردوغان السيسي بـ«القاتل» و«الانقلابي» وما شابه، وصولاً إلى رفض الرئيس التركي أثناء مشاركته في أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك عام 2014، الجلوس إلى طاولة الغداء نفسها حيث كان يجلس نظيره المصري. وفاقم من التوتّر بين البلدين، التدخّل التركي العسكري المباشر في الحديقة الخلفية لمصر، أي في ليبيا، ومن ثمّ ترسيم الحدود البحرية بين تركيا وليبيا، وتوقيع هامش موندبال قطر، مناسبة مهمّة لتنقية العلاقات ممّا تبقّى فيها من شوائب، والبحث عن حلول للمشكلات التي لا تزال عالقة، من الوضع في ليبيا، إلى نشاط «الإخوان المسلمون» ولا سيما الإعلامي في تركيا، إلى الوضع في شرق المتوسط على صعيد الطاقة، بما يشمل ترسيم الحدود البحرية بين البلدين. وستلي زيارة السيسي لأنقرة، جولةٌ لإردوغان على ثلاث دول خليجية هي: السعودية والإمارات وقطر، وُصفت بأنها أولاً لشكر تلك الدول على الدعم الكبير الذي قدّمته خلال الحملة الانتخابية لدعم الليرة التركية، وبالتالي دعم فرص إردوغان في الفوز بالرئاسة، علماً أن الأموال المُشار إليها قُدّرت بما لا يقلّ عن خمسين مليار دولار. أمّا الهدف الثاني منها، فهو محاولة تحصيل مزيد من الأموال من البلدان الخليجية لحساب برنامج الحكومة الاقتصادي الجديد، فيما الهدف الثالث، نيل الدعم التمويلي اللازم أيضاً للتحضير للانتخابات البلدية في آذار المقبل، في ظلّ تصميم إردوغان على استعادة بلديتَي إسطنبول وأنقرة من يد المعارضة، وهو ما يقول مسؤول تركي لم يعلن عن اسمه، إن الرئيس يتطلّع من أجله إلى جمع ما لا يقلّ عن 25 مليار دولار. وتأتي الجولة المرتقبة بعد أسبوعين تقريباً على زيارة لـ«الإمارات قام بها وزير المال، محمد شيمشيك، ونائب رئيس الجمهورية، جودت يلمان، لتعزيز العلاقات الثنائية الاقتصادية، ولا سيما زيادة الاستثمارات الإماراتية في تركيا. والجدير ذكره، هنا، أنه لا يمكن وضع العلاقات مع الدول الخليجية الثلاث في كفّة واحدة؛ فهي في ما يتّصل بالسعودية والإمارات تندرج في إطار «استعادة العافية»، وبلورة أفاق التعاون الجديد الثنائي كما على الصعيد الإقليمي، بينما مع قطر تتّسم بطابعها الاستراتيجي في كلّ الميادين.

لكن عودة تبادل السفراء بين البلدين أخيراً، مثّلت خطوة مهمّة على طريق طيّ صفحة النزاع، وخصوصاً أنه أعقبها الإعلان عن خطوة أهمّ، وهي زيارة السيسي «التاريخية» المرتقبة لتركيا في 27 تموز الجاري. وستمثّل هذه الزيارة، التي تأتي بعد مصافحة أولى بين إردوغان والسيسي على هامش مونديال قطر، مناسبة مهمّة لتنقية العلاقات ممّا تبقّى فيها من شوائب، والبحث عن حلول للمشكلات التي لا تزال عالقة، من الوضع في ليبيا، إلى نشاط «الإخوان المسلمون» ولا سيما الإعلامي في تركيا، إلى الوضع في شرق المتوسط على صعيد الطاقة، بما يشمل ترسيم الحدود البحرية بين البلدين. وستلي زيارة السيسي لأنقرة، جولةٌ لإردوغان على ثلاث دول خليجية هي: السعودية والإمارات وقطر، وُصفت بأنها أولاً لشكر تلك الدول على الدعم الكبير الذي قدّمته خلال الحملة الانتخابية لدعم الليرة التركية، وبالتالي دعم فرص إردوغان في الفوز بالرئاسة، علماً أن الأموال المُشار إليها قُدّرت بما لا يقلّ عن خمسين مليار دولار. أمّا الهدف الثاني منها، فهو محاولة تحصيل مزيد من الأموال من البلدان الخليجية لحساب برنامج الحكومة الاقتصادي الجديد، فيما الهدف الثالث، نيل الدعم التمويلي اللازم أيضاً للتحضير للانتخابات البلدية في آذار المقبل، في ظلّ تصميم إردوغان على استعادة بلديتَي إسطنبول وأنقرة من يد المعارضة، وهو ما يقول مسؤول تركي لم يعلن عن اسمه، إن الرئيس يتطلّع من أجله إلى جمع ما لا يقلّ عن 25 مليار دولار. وتأتي الجولة المرتقبة بعد أسبوعين تقريباً على زيارة لـ«الإمارات قام بها وزير المال، محمد شيمشيك، ونائب رئيس الجمهورية، جودت يلمان، لتعزيز العلاقات الثنائية الاقتصادية، ولا سيما زيادة الاستثمارات الإماراتية في تركيا. والجدير ذكره، هنا، أنه لا يمكن وضع العلاقات مع الدول الخليجية الثلاث في كفّة واحدة؛ فهي في ما يتّصل بالسعودية والإمارات تندرج في إطار «استعادة العافية»، وبلورة أفاق التعاون الجديد الثنائي كما على الصعيد الإقليمي، بينما مع قطر تتّسم بطابعها الاستراتيجي في كلّ الميادين.

وفي خضمّ كلّ هذه الحركة التركية الواسعة على صعيد السياسة الخارجية، والتي تسعى لتكريس خيارات بدأت قبل الانتخابات الرئاسية في 28 أيار الماضي، فإن التساؤل الأكبر سيبقى قائماً حول التعثر الذي يواجهه تقدم مساعي المصالحة بين تركيا وسوريا.

تقرير

التمديد لستولتنبرغ أميناً عاماً
واشنطن تلفلف الخلافات «الناتوية»

لندن ـ سعيد محمد

مجدّداً، اتفقت الدول الأعضاء في «حلف شمال الأطلسي» (الثلاثاء) على تمديد ولاية الأمين العام الحالي للحلف، ينس ستولتنبرغ، لعام آخر حتى 30 أيلول 2024، بعدما مُدّد للأخير أيضاً العام الماضي مع مرور شهر على انطلاق الحرب الروسية - الأوكرانية. وسيُصادق أعضاء «الناتو»، رسمياً، على التمديد خلال قمّتهم في العاصمة الليتوانية فيلنيوس الأسبوع المقبل. وكان من المقرّر أن يتنحّى ستولتنبرغ، رئيس الوزراء النروجي السابق، الذي يتولّى منصبه منذ تشرين الأول 2014، مع نهاية أيلول من العام الحالي، لكن الدول الأعضاء البالغ عددها 31، توافقت بشكل مفاجئ هذا الأسبوع على تمديد آخر له هو الرابع له على التوالي، بعد التمديد له في عام 2017 حتى أيلول 2020، وتالياً في عام 2019 لغاية أيلول 2022، وثالثاً في 2022 حتى أيلول 2023. وبذلك، تكون فترته ثاني أطول ولاية بعد وزير الخارجية الهولندي السابق، جوزيف لونس، الذي أمضى ما يقرب من 13 عاماً على رأس الحلف منذ عام 1971. ويُعتبر منصب الأمين العام لـ«الناتو» أرفع منصب مدني في الحلف العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة، وتُناط بشاغله رئاسة جميع اللجان الرئيسية المسؤولة عن توجيه المناقشات، والتنسيق بين الدول الأعضاء في عملية صنع القرار، والسهر على ضمان تنفيذ القرارات المتّخَذة، إضافة إلى دوره الرمزي كمتحدّث وممثل لدى الدول والمؤسسات الدولية الأخرى، وهو يعيّن بتوافق جميع الدول الأعضاء مرّة كل أربع سنوات، لكن التمديد أمر وارد أيضاً عند الحاجة.

> تشمل أولويات ستولتنبرغ تعزيز موقف الحلف عسكرياً في أوروبا الشرقية

وبحسب مطّلعين، فإن التمديد الجديد جاء بدفع من واشنطن التي أرادت تجنّب حدوث خلافات بين الدول الأعضاء في خضمّ الحرب التي يخوضها الحلف ضد روسيا، بعدما كثر المرشحون الرسميّون والمفترضون، وظهرت إشارات إلى تفاوتات بين أطراف «الناتو» بهذا الخصوص. وبرّر الأميركيون موقفهم بضرورة تجنّب تغيير القيادات أثناء سير المعركة، وهو ما لم تُشر إليه واشنطن عندما تعدّدت زيارات المرشحين إليها، وخصوصاً أنه يستبطن اعترافاً بدور الحلف في المنازلة الجارية على الأراضي الأوكرانية. وبعدما أعلن ستولتنبرغ (64 عاماً)، عدّة مرات، أنه «لا يسعى» للبقاء في المنصب، قال تعليقاً على قرار التمديد في بيان: «يشرّفني قرار حلفاء الناتو تمديد فترة ولايتي كأمين عام»، وأضاف: «لقد ضمنت هذه الرابطة عبر الأطلسي بين أوروبا وأميركا الشمالية حريتنا وأمننا لما يقرب من 75 عاماً، وفي عالم اليوم الأكثر خطورة، أصبح تحالفنا العظيم هذا أكثر أهمية من أي وقت مضى».

من جهته، أشاد البيت الأبيض، في بيان، بـ«خبرة ستولتنبرغ وحكمته، وقيادته الثابتة لتحالفنا عبر أهم التحديات التي واجهها الأمن الأوروبي منذ الحرب العالمية الثانية»، في إشارة إلى الدور الذي لعبه الأمين العام في تنسيق مواقف الدول الأعضاء عما تتّوجهات القيادة الأميركية في ما يتعلّق بالصراع الروسي - الأوكراني. وهنّأت وزيرة الخارجية الألمانية، أنالينا بيربوك، بدورها، ستولتنبرغ، قائلة إن مهاراته القيادية كانت «أساسية» في تعظيم قوة الحلف، فيما قدّم الرئيس الأوكراني، فولوديمير زيلينسكي، تبريكاته في مكالمة هاتفية، معلناً أنه «يتطلّع إلى مواصلة تعاوننا المثمر. أمّا رئيس الوزراء البريطاني، ريشي سوناك، فقال إنه «يتطلّع إلى الاستمرار» في العمل مع الأمين العام الحالي «الذي تطوّر في عهده حلف الناتو لمواجهة التهديدات الجديدة».

التمديد الجديد جاء بدفع من واشنطن التي ارادت تجنّب حدوث خلافات بين دول «الأطلسي» (أ ف ب)

ومع ذلك، فإن تصريح سوناك لم يخفِ شعوراً بخيبة الأمل في لندن من القرار الذي اضطرّت الأخيرة مرغمة للقبول به، بعدما كانت تسعى لتعزيز مكانتها العالمية إثر خروجها من عضوية الاتحاد الأوروبي، بطرح اسم وزير دفاعها، بين ولاس، علناً، لخلافة ستولتنبرغ، ومحاولتها بناء توافق حوله. إلّا أن فرنسا لم تكن مَيّالة إلى هذا الخيار، فيما توافقت مجموعة الدول الاسكندنافية (النرويج والدنمارك والعضو الأحدث فنلندا) على دعم ترشيح ميتي فريدريكسن، رئيسة وزراء الدنمارك، وتحفّظت دول الكتلة الشرقية السابقة، ولا سيما بولندا، على تولية أمين عام جديد ينحدر من اسكندنافيا بعد فترة ولاية النروجي ستولتنبرغ الطويلة، وولاية سلفه الدنماركي أندرس فوغ راسموسن، وأعلنت تطلّعها إلى تنصيب شخصية من مجموعة دول البلطيق، مثل رئيس وزراء إستونيا، كاجا كالاس، لتأكيد التزام الحلف بالدفاع عن خاصرته الشرقية الرخوة. ومن بين الأسماء التي تمّ تداولها أيضاً، رئيس الوزراء الهولندي، مارك روته، فيما رغبت دول أخرى في تغيير نهج تعيين رجال بيض آتين من الشمال الأوروبي في المنصب، وتسليم المهمة هذه المرّة لسيدة.

وأمضى ستولتنبرغ معظم الأشهر الـ18 الماضية في نشاط محموم للحفاظ على خيط رفيع بين حثّ الدول الأعضاء على تقديم دعم عسكري لنظام كييف، وبين تجنّب تورّط «الناتو» في صراع مباشر مع روسيا، القوة النووية الأولى في العالم. كما لعب دوراً شخصياً في التحاق فنلندا بعضوية الحلف، لكنه لا يزال يواجه تمنّعاً تركياً لانضمام السويد. وتشمل أولويات ستولتنبرغ الأخرى تعزيز موقف الحلف عسكرياً في أوروبا الشرقية، وإعادة موضعته استراتيجياً كمظلّة غربية لردع الغريم الروسي بعد سلسلة عمليات خارج هذا الإطار، تمثّلت في غزوات أميركية جانبية لأفغانستان وليبيا وغيرها. ويتعيّن عليه أيضاً أن يُصوغ استراتيجية «الناتو» بشأن الصين، والتعاون مع الدول الخاضعة للنفوذ الغربي في الجوار الصيني مثل اليابان وكوريا الجنوبية التي تشعر بالقلق إزاء تصاعد القوة العسكرية الصينية. كذلك، تنتظره إدارة العلاقة مع فرنسا، الحليف الأساسي الذي لديه طموحات إلى تطوير دفاع أوروبي ذاتي تقوده باريس وبرلين.

استراحة

إعداد نعوم مسعود

كلمات متقاطعة 4351

أفقيا

1- حالة الإنسان في حياته – دائرة حكومية – 2- من أعضاء الجسم – تراب مجبول بماء – 3- مدينة فلسطينية – مكان حريز في أثناء الغارات الجوّيّة – 4- أدب وذوق – وطن – 5- مدينة فرنسية – عاصفة بحرية – رجاء – 6- عبودية – حديقة حيوانات بالأجنبية – والدة – 7- عاصمة عربية – 8- من الحيوانات – أصل البناء – مدخل – 9- مدينة فرنسية – حب – جواب – 10- فنان لبناني

عمودياً

1- بلدة لبنانية في قضاء الكورة – 2- إستيقظ من نومة – عاجل – 3- شهر هجري – جزيرة يمنية – 4- صرّ – هيئة الملابس – خاصم أشدّ الخصومة – 5- نعم بالأجنبية – ممثلة مصرية معتزلة – 6- حاجز مائي – نهر إيطالي – صوّت في خفاء – 7- سئم وضجر – قادم – هدم – 8- مدينة بريطانية – 9- يزور الأماكن المقدسة – عملاق – 10- حصن السوال – قمر كامل

	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1
1						■				
2				■			■		■	
3					■					
4		■				■				
5				■			■			
6		■			■			■		
7	■		■						■	
8				■			■			
9			■			■				■
10										

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1-كمال الحلو – 2- ادريس – بطيخ – 3- خل – الشكل – 4- سام – صل – 5- وليد عوض – بل – 6- ناداب – رسوم – 7- سئسن – بين – 8- يد – وقار – كز – 9- رب – رنا – 10- يوسف الخازن

عمودياً

1- كارسون سيتي – 2- مدّ – الأند – 3- أرخميدس – اس – 4- ليل – دانو – 5- اس – صعب – قرأ – 6- الو – بابل – 7- حبل – ضرير – 8- لطشه – سن – را – 9- ويك – بو – كنز – 10- خليل مطران

sudoku 4351

1		9		8				5
		8	7		1	9		
	6			5		2		
9					8			1
		2				7		9
	1		4			6	8	2
5				9		1	2	4
					6	8		7
		7		4				3

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أو عمودي.

حل الشبكة 4350

5	9	2	3	4	6	1	7	8
8	3	7	1	2	9	6	5	4
6	4	1	5	8	7	9	2	3
7	5	8	6	9	3	2	4	1
2	6	4	8	5	1	3	9	7
9	1	3	2	7	4	5	8	6
1	8	9	7	3	5	4	6	2
3	2	5	4	6	8	7	1	9
4	7	6	9	1	2	8	3	5

مشاهير 4351

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

فلكي ألماني (1571-1630). وضع نواميس الكواكب السيّارة

7+1+5+8+4 = عاصمتها نيروبي ■ 11+2+9+10 = عملة روسيا ■ 3+6 = حرّك

حل الشبكة الماضية: ابراهيم ناجي

البلاد

ملف

جنين
«وصار صراع الوجود معافى»

تقبض جنين على سرّ هذه البلاد ولا يبدو منها البتة ما يدلّ على رغبة في أن تكسر روتينها الذي تواظب عليه. كلّما تشخص إليها الأبصار تراها تضيء بأحجارها وشبابها جذوة البقاء على طول الأرض ما بين الأزرقين. وفي هذه الريادة معنى أن تتوّج على التوالي عاصمة للانتفاضة والاشتباك والمقاومة. تكرّر الانتصار لكل فلسطين، بتكافل الناس داخلها ومن حولها، وباحتضان المقاومين، تماماً مثلما تنتصر بثبات شبّان ولدوا في هذه الألفية من أرحام مهجّرة، يحملون البنادق ويناطحون وجه الموت والته. تعيد جنين، كلّما دارت الأرض بمرج بن عامر وجبل الكرمل دورة، سردَ رواياتها، مع فصول مزيدة ومنقحة، من العشرينيات إلى العشرينيات. وبينهما ملحمة عام 2002. تقول اليوم: هذه بـ«السوار الواقي»، وجيل جنين باوهام «جيل دايتون»، والجغرافيا الواقعة بين احتلالين، الضفة و48، خزّان البلاد الوفير من الأحلام

مشاهد من بأس الصمود

جنين ـ **عصري فياض**

مساحته 385 دونماً، وعدد سكانه 17 ألف لاجئ فلسطيني، قذفت بهم النكبة من 66 مدينة وقرية فلسطينية مهجرة عام 1948. أمّا التاريخ النضالي لمخيم جنين، فقد بدأ بمجموعات فدائية عام 1955 عبر «مكتب 23» في دمشق، ومن ثمّ مجموعات فدائية في أوائل الستينيات، ثمّ خلايا فدائية بعد احتلال عام 1967 إلى عام 1987، وانتفاضتين ملحميتين تجلّت الثانية منهما بالمعركة الشهيرة عام 2002، والتي أسقطت من المحتل 28 ضابطاً وجندياً قتيلاً وإصابة 146 آخرين جرحى باعتراف العدو، وارتقاء 58 شهيداً في تلك المعركة، من بينهم 29 مقاتلاً طيلة أيام المعركة الـ 12. أمّا جنين «دوار الحصان» إلى قلب المخيم من الجهة الشرقية الشمالية، توغّلت الجرافة وسط الإطلاق الكثيف للنيران من الأرض والجو عشرات الأمتار، فتشجّعت سيارة الجيب العسكرية المصفحة للدخول على رأس رتل من الآليات العسكرية، وقبل أن تتقدّم مسافة عشرين متراً، كانت عبوة ناسفة كبيرة في انتظارها، فمزّقتها، وأمطرها المقاومون بوابل من الرصاص والعبوات اليدوية، فهاجت الآليات من خلفها وتقهقرت إلى الخلف، فعادت الجرافة لسحب الآلية المدمرة وسط تكبيرات المقاتلين والمواطنين.

- المشهد الثاني -

قبل بداية القصف الجوي بدقائق، نقطة الحسم تعج بالمقاتلين، اثنان منهم في داخل البيت، أحدهم يتابع شاشة المراقبة للشوارع القريبة، والباقون خارجه، بعضهم ترك المكان أو حاول، فجأة اخترق صاروخ سقف النقطة، تلاه آخر، ارتقى سميح وأصيب أشرف بجروح خطيرة، ثم توالى القصف على نقاط الرباط في المخيم «طورا بورا» و«الغسالات» و«06» و«الفلوجة» و«الزعيني» و«الجبل» و«النور» و«الأنصار» و«الشجرة» و«المطاحن»، عُبّئت المخازن، وسُحبت الأقسام، وانتشر الحماة في كل الأزقة، أجهزة الإرسال لا تهدأ، المعنويات أعلى من طائراتهم المسيَّرة، الأهالي بالآلاف خرجوا إلى الشوارع، وبدؤوا فتح أبوابهم الرئيسية والخلفية لمرور المقاتلين، مكبّرات الصوت في المساجد تطلق تكبيرات العيد، فالعيد هنا لم ينته بعد، بل إنّ موعده الآن.

- المشهد الثالث -

بعد ساعة من محاولات التقدّم إلى قلب المخيم على أكثر من محور، الجرافات الضخمة تحاول تمهيد الطريق الرئيس المار من خلف مشفى جنين «دوار الحصان» إلى قلب المخيم من الجهة الشرقية الشمالية، توغّلت الجرافة وسط الإطلاق الكثيف للنيران من الأرض والجو عشرات الأمتار، فتشجّعت سيارة الجيب العسكرية المصفحة للدخول على رأس رتل من الآليات العسكرية، وقبل أن تتقدّم مسافة عشرين متراً، كانت عبوة ناسفة كبيرة في انتظارها، فمزّقتها، وأمطرها المقاومون بوابل من الرصاص والعبوات اليدوية، فهاجت الآليات من خلفها وتقهقرت إلى الخلف، فعادت الجرافة لسحب الآلية المدمرة وسط تكبيرات المقاتلين والمواطنين.

- المشهد الرابع -

بعد عشر ساعات على المعركة المحتدمة على كل المحاور، خمسة مقاتلين من أبطال وأشبال الكتيبة في وسط شرق المخيم، مقاتل منهم بلغ العشرين والأربعة الباقون لم يتجاوزوا الخمسة عشر عاماً، تقدّم أحدهم وفجّر عبوة كبيرة في الجرافة التي تعمل على تجريف طلعة «عبلة» المؤدية إلى حارة الدمج، والفتيان الثلاثة الآخرون أمطروها بالقنابل اليدوية محلية الصنع، فتقهقرت، لم يلتفت الفتية الثلاث إلى وجود القناصة في مسكن لا يبعد عنهم ثلاثين متراً، أطلقوا النار على مجدي، وثنّوا بالقنص على ابن عمّه كمال، وأكملوا على ثالثهم علي. مجدي ارتقى وعلي أيضاً، أمّا كمال، فرغم جراحه القاسية التي اخترقت مقدمة رأسه، خلع قميصه وحاول ربط جراح رقبة ابن عمّه مجدي، تقدّم العامر وهو يطلق الرصاص لسحبهم فارتقى هو أيضاً. ثلاثتهم تراكموا فوق بعضهم البعض، ورابعهم العامر في الجهة المقابلة، كانوا مثل مظلة ملوّنة عصفت بها الريح. كمال لا يزال قلبه ينبض بالحياة، لكن في أقسى حالات الخطورة.

- المشهد الخامس -

بعد 12 ساعة من العدوان، القصف المجنون من المسيرات في كل مكان، خمسة عشر مقاتلاً في أعلى حارة «السمران» ينصبون كميناً محكماً لجيش الاحتلال القادم من الجابريات وحارة «أبو العزمي» و«الخبيزة» نزولاً نحو وسط المخيم عبر حارة «السمران»، اقتربت القوات المحتلة منهم، أصبحت في مرمى النيران، فتحوا النار على لحن التكبيرات، ذعر الجنود وارتموا أرضاً ولاذ بعضهم خلف الجدران. الاشتباك الشديد دام أكثر من عشر دقائق، كانت مدة تجميع عدد كبير من المسيرات المذخرة التي صبّت جام صواريخها عليهم، فأصيبوا جميعاً بجروح متفاوتة، ونقلوا، بعد ربع ساعة من المقاومة رغم جروحهم، إلى المشافي عبر سيارات الإسعاف التي هرعت إلى المكان رغم غزارة النيران والصواريخ.

- المشهد السادس -

بعد 14 ساعة من المعركة، قوات كبيرة تتقدّم بهدوء من وسط الجهة الشرقية الوسطى نحو حارة الدمج، بعد ثمانين متراً، وفي قلب تلك الحارة، يوجد مسجد الأنصار المكون من ثلاث طبقات، هناك ثلاثة طرق تقع شرق المسجد، إحداها نزولاً إلى حارة «الحواشين»، والثانية شرقاً إلى حارة «الصباغ»، والثالثة جنوباً إلى منطقة الجبل، فجأة تبدّد الصمت برصاص متواصل وكثيف من عدة جهات نحو هذه القوة، الطائرات المسيّرة تبدأ قصف أماكن المقاتلين. المقاتلون تمكنوا من إسقاط إحداها، صراخ الجنود يكاد يعلو على صوت الرصاص والعبوات المتفجرة، النيران تندلع في المنطقة، المعركة استمرت نحو الساعة، استدعيت خلالها ثلاث طائرات «أباتشي»، تأكد المقاتلون من إسقاط الجرحى والقتلى في صفوف القوة المهاجمة، فانسحبوا إلى داخل المسجد، القوة المحتلة المهاجمة انكفأت بخسائرها للخلف، وجاءت ثلاث طائرات نقل هليوكبتر عسكرية لنقل القتلى والجرحى إلى مشافي «هعيمق» و«رامبام» في حيفا، بينما تقدّمت قوة معزّزة مرة أخرى، فحصل قتال عنيف، لجأ خلاله المقاتلون إلى داخل المسجد، فاخذت مكبرات الصوت تطلب منهم تسليم أنفسهم وإلا فسيقومون بقصف المسجد عليهم. ساد الهدوء لساعة تقريباً، ضُرب المسجد بخمسة صواريخ كتف، ثم اقتحمت قوة خاصة المسجد فوجدت نفقاً تحته مرّ فيه المقاتلون إلى حيٍّ آخر.

- المشهد السابع -

في الاعتقالات، قوات الاحتلال دهمت البيوت، روّعت أهلها، دمرت محتوياتها، أجرت تحقيقاً ميدانياً مع سكانها، اعتقلت بعض شبابها وشيوخها، شاب لم يتجاوز من العمر 16 عاماً، اعتُقل مع رجل مسنّ، أدخل المصفّحة، الجنود يحاولون إهانة ودفع الشيخ المسنّ لركوب الآلية، صرخ الفتى بهم وشتمهم وأهانهم وتحداهم رغم تقييده وتعصيب عينيه لتصرفهم الفظ مع المسن، فبهتوا. عندما وصلت بهم الآلية إلى حيث مركز التحقيق قرب حاجز الجلمة، أخذوه جانباً ونكّلوا به في محاولة لترميم كبريائهم المهان.

- المشهد الثامن والاخير -

في الساعة الخمسين من المعركة، الأخبار تفيد بقرب الانسحاب، عدد من المقاتلين ينجح في الإفلات من الحصار وينصب كمائن للقوات التي تهم بالانسحاب من شوارع المدينة، قوة وقعت في فخ عبوة جانبية كبيرة، انفجرت في آلية محصنة فدمرتها، وقتل فيها جندي من وحدة «اغوزة» الخاصة التابعة لهيئة الأركان، فأعادت الذاكرة لكمين زقاق «أم راضي» في نيسان 2002، والذي قتل فيه 13 ضابطاً وجندياً من نفس الوحدة.

خاتمة

انتصر المخيم، وبانت سوءة المحتل، وظهرت هشاشة قوته الاستعراضية، وفشلت أهدافه، وتيقّن الجميع أن ترميم حالة الردع لجيشه أصبح مستحيلاً، فكل محاولة، وعلى أي ساحة أو جبهة، تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أنه جيش يتداعى وينقهقر.

معركة الهامش نحو صدر التاريخ

نضال خلف

يُعرّف تاريخ الأمم بصفته سياقاً يقسّم إلى مراحل متفاوتة ما بين الصعود والانحدار، يرسم كلٌّ منها ملامح المرحلة المقبلة، التي غالباً ما تكون ردّة فعل على ما سبق. وفي تاريخنا العربي، كان الخروج من مرحلة النهضة القومية شاقّاً، حمل معه مناهج فكريّة مناقضة لمبادئ مرحلة المواجهة والتحرير والوحدة. ومن الأفكار التي انتشرت بقوّة في زمن الهزيمة والتي لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم، فكرة انكفاء «الصغار» إلى هامش التاريخ الذي يصنعه «كبارٌ» يتحكّمون بكامل مفاصل اللعبة. وتستمدّ هذه الفكرة جذرها من الشكّ الأوروبي الناتج من العدد الهائل من الضحايا الذين سقطوا في حروب كانت غايتها الأولى ترسيخ وتوسيع نطاق السيطرة على العالم ونهب الموارد الطبيعية. وقد عبّر عن هذا الشعور سابقاً المؤرخ الألماني والتر بنيامين حين قال: «إنّ من خرج منتصراً - كائناً من كان - يشارك في موكب النصر، حيث يخطو حكام اليوم على أجساد من سقطوا في الميدان». وفي سياقنا العربي، تُرجمت هذه العبارة إلى مقولة «ستنتهي الحرب ويتصافح القادة» التي تُنسب زوراً إلى محمود درويش.

فما علاقة كلّ هذا بجنين؟

في الواقع، إنّ تشخيص حقيقة الحرب الاستعمارية الصهيونية ضد الأمة العربية يكشف بعض التشابه مع فكرة الانكفاء. فمعركة إسرائيل لإبادة الشعب الفلسطيني (بصفته العائق الديموغرافي الأبرز بوجه إقامة المخفر الاستعماري) هي في جوهرها أداة تهميش لفئات هذا الشعب عن واقعه السياسي، وذلك من خلال منع هذه الفئات من البقاء في الأرض والاستفادة من الموارد والمساهمة في تشكيل واقعها السياسي بإرادتها وضمن نطاق هويتها. ويُعدّ التهجير أحد أوضح وجوه التحديد، بعد الإبادة الجسدية، والذي ينتج تشكّلاً مادياً يعبّر عن هذا التهميش بصورة ناصعة: «المخيّم». وعلى الرغم من مركزيته في تعريف القضية السياسية، يختصر المخيّم جميع معاني التهميش، بدءاً من الهوية وصولاً إلى أبسط أشكال الحياة. فالمخيّم أرضٌ مؤقتة، أصل تاريخها مأساة، ومستقبلها مرهون بحرب لن تقلّ دمويّةً مع الأيام. وما بين الماضي والمستقبل، يقبع الحاضر ثقيلاً على المخيم، فهو في نهاية المطاف تجمّع لفقراء (وبأدقّ تعبير مُفقرين) لا يملكون سوى عقولهم وزنودهم لتحصيل القوت من منظومة اقتصادية طاحنة يرعاها العدو بشكل أو بآخر. أمّا أهل المخيّم، فهم المُبعدون قسراً من أراضيهم، المحرومون من حرّية الحركة والتنقّل وفرص العمل، والمتروكون على هامش التاريخ والسياسة. واقع التهميش الذي يحاصر المخيّم ليس حكراً على جنين، بل هو صفةٌ من الصفات التأسيسية لفكرة المخيّم. قاومها الشعب الفلسطيني عبر التاريخ، لكنها ما لبثت أن جثمت على صدره بعد اتفاقيات الاستسلام وتنازلات «الدولة». لكنّ مخيّم جنين يصرّ على سرد رواية أخرى. بالتأكيد، للمعركة الحالية، كما السابقة عام 2002، تفاصيلها الميدانية التي تشكّل أساس فهم الواقع المقاوم في جنين واستراتيجيات العدوّ للقضاء عليه، لكن من ناحية ثانية، فإنّ المشهد في جنين يمكن تلخيصه كالآتي: ثلّة من المهمّشين الذين اقتحموا صدر التاريخ وأصرّوا على صياغة صفحاته بأيديهم. فهنا، في المخيّم المقاتل، القادة لا يتهافتون لمصافحة قادة العدو، بل يرابطون لمنازلة جنوده في الميدان. في المخيّم المقاتل، لا يستسلم الشاب العشريني لبلادة النظم التعليمية، ولا لظروف البؤس المحيطة، بل يجتهد حتى يرتقي إلى مصاف مقارعة أكبر عقول التجسّس ومصانع السلاح. هنا القرار السياسي ليس فيه كبير أو صغير، فالكبير هنا هو من يؤلم العدوّ، والصغير هو من يخضع أمام البسطار. في مخيّم جنين، تثبّت المعادلات بقرار وفعل أبناء المخيّم، بعيداً عن الاستعراض، بل لفرض واقع جديد في الحياة السياسية الفلسطينية، قوامه إعادة المخيّم وكلّ بقعة مهمّشة إلى حلبة الصراع. ومجرّد استعادة المخيّم للقب «المقاتل»، فإنّ ذلك نصرٌ على صعيد الوعي بالدرجة الأولى. فالمخيّمات الفلسطينية تحيا فقط بكونها قواعد انطلاق للعمل الفدائي، وتموت إذ تنحصر في خانة اللجوء العاجز.

المشهد في جنين يمكن تلخيصه كالآتي: ثلّة من المهمّشين الذين اقتحموا صدر التاريخ وأصرّوا على صياغة صفحاته بأيديهم

إنّ العادلة التي يرسمها مخيّم جنين بدماء وحكمة أبطاله، لا بدّ أن تكون النافذة التي نستعيد من خلالها دور المخيّمات الفلسطيني في كلّ بقاع الشتات. فكلّ صفات الفدائي لا تزال حاضرة فينا، ولنا من التاريخ ما يكفي ويفيض لكسب الخبرة من التجارب السابقة والبناء عليها. لكن يبقى أن ندرك القوّة الكامنة فينا ونلتزم بخوض معركة الصعود من الهامش إلى صدر التاريخ. وإن كان لجنين جميل العموري، فغداً سيولد من كلّ مخيّم فلسطيني جميلٌ يحمل الراية.

ختاماً، لقد خطّ مخيّم جنين مجدّداً رسالة كلّ المخيمات الفلسطينية والقابعين فيها على هامش التاريخ: سوف ينتهي المخيّم، لكن بشرطنا... وشرطنا التحرير.

9
كيف نعرّف الانتصار في جنين؟

عبد الجواد عمر

يتجاوز الانتصار في جنين الجدل التكتيكي والعسكري الذي دار بين قوات الاحتلال والمقاومة في مخيم جنين ومحيطه، ويتخطّى قدرة المقاومة الفلسطينية على الحفاظ على قدرة وقابلية المقاومة واستمراريتها.

يكمن البعد الأوّل للانتصار في المعركة هذه ألف جندي، على الرغم من أن الجنود أصبحوا بعد ساعات عدّة أهدافاً ثابتة يعانون من تراخٍ.

وهنا يكمن النجاح الأهم للمقاومة؛ أي أنها نجحت في تجنّب توفير أهداف سهلة للطيران والقناصة. بمعنى آخر، استطاعت المقاومة في تمركزها الدفاعي وانتشارها تجنّب المجازفات التي كانت ستتيح للعدو احتمالية تحييدها بجهود ضئيلة من جانبه. وقد انتقت بعناية أيضاً أوقات الاشتباك مع القوات المتسلّلة بطريقة تعطيل قدرتها على استخدام سلاح الجو والقناصة، أو على الأقل تجنّب تدخّل سلاح الجو من دون المجازفة بحياة جنوده القريبة من مواقع إطلاق النار للمقاومين، أو تطوّر المعركة ليصل إلى حيث يتأثّر سكّان المخيم. ببساطة، سعت المقاومة إلى تقريب المسافات بعمليات الاشتباك الدفاعية والمتفرّقة والقليلة، بينما سعت قوات الاحتلال إلى الحفاظ على مسافة أمنة.

لا يمكن النظر إلى عدد الجنود على أنه أمر اعتباطي في تصميم العملية البرّية. فمن الواضح أنه لو امتلك الفرصة لإنجاز المهمّة في قلب المخيم واعتقال المقاومين واغتيالهم لكان فعل. فإقحام ألف جندي يدلّ على أن في تصميم العملية نفسها كان هناك سيناريوات عدّة تضمّنت ضرورة تفعيل هذا النوع من القوة. نعم، حاول العدو التخفيض من «التوقّعات» حول العملية، ولكنّ المعطيات الميدانية ساهمت في قراره الانسحاب من دون إتمام تصفية المقاومة أو إضعافها بشكل لا تعود معه قادرة على العودة بالقوة نفسها. بل إن عدد الجنود وتوظيفهم بهذا الشكل، كان أيضاً استعراض قوّة يهدف إلى هزيمة المقاومة قبل لقائها. افتتح العدو الجولة بقصف جوي، وإقحم ألوية عسكرياً في العملية، ظناً منه أن هذا النمط من الدخول يفضي إلى هلع وخوف يؤدّي بالمقاومة إلى توفير الأهداف السهلة، ولكن المخطط لم يكن ناجحاً بمعنى مطلق.

صمدت المقاومة ولم تهلع، ونجحت في الحفاظ على استمراريتها، وكشفت تذبذب الإسرائيلي في خوض المعارك البرّية، وتميّزت بقدرتها على اختيار مسافة المجازفة بالاشتباك وموعدها. ومع ذلك، يجب أن نشير إلى أن الصراع الأهم الذي تحقّق لم يكن في المعركة نفسها، وإن كانت المعركة شرطاً أساسياً لتحقيقه.

في الضفة الغربية، توجد تناقضات داخلية وطبقية وسياسية عديدة وكثيرة. يمكننا القول إن جزءاً من المجتمع الفلسطيني وقع في فخ «حب الخسارة نفسها»، أو ما يسمّى في علم النفس التحليلي «ملنخوليا». في هذا التموضع الشعوري ما يعارض الفعل والفعالية السياسية بشكل أساسي، فهو شعور يرغب في إدامة حالة الخسارة نفسها كتعويض عن فقدان الأفق نحو فلسطين، بل يصبح الانغماس في رفض الفعالية السياسية، وتعزيزه مادياً وسياسياً، الشغل الشاغل لعديدين. تكمن خطورة هذا التموضع الشعوري، المدعّم بأدوات اقتصادية وسياسية وطبقية، في أنه يتيح استمرارية «التنسيق الأمني» وما يترتّب عليه من مكاسب مادية وسياسية للنخب الحاكمة. لذا، كان تحرّك المقاومة في نهضتها الأولى قبل عامين يهدف إلى إعادة بناء أفق فلسطين مرة أخرى، وأن يتم توجيه جهودها نحو «مصحصحة» المجتمع الأوسع كما ظهر في أحاديث المقاومين أنفسهم، ولكي تخرج الناس من هذا التموضع الشعوري المريح مؤقتاً، والذي يشارف على قبول ضمني بالموت الاجتماعي والسياسي، وتدعمه مؤسسة رسمية بواسطة القمع المتعدّد الأوجه.

اعتاد المجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية على ما لا يمكن التعوّد عليه، بل يمكن القول إنّ البعض، أو كثيرين، اعتادوا الاعتياد. فهو يقف أمام حرق القرى من دون القدرة الجادّة على المجابهة، ويقف أمام احتمالية عودة التهجير المكثّف من دون صياغة سياسية وعسكرية دفاعية لمواجهته. في لبّ المسألة - إذاً - هذه القدرة الهائلة على الاستمرار بالحياة اليومية القائمة على الاستهلاك والامتيازات والروتين، رغم أن النهاية تلوح في الأفق.

يسكت من يعوّل على قدرة الاحتلال على إنهاء ظاهرة المقاومة، وهنا في الحقيقة انتصاران، الواحد شرط الآخر: انتصار تكتيكي نسبي نجحت فيه المقاومة، وانتصار سياسي رمزي تقدّمه لنا سواعد المخيّمات

وهنا يحضر انتصار جنين بقوة، إنه يكشف مواضع ضعف الاحتلال وحلفائه، انتصار يخرج من حارات ومخيمات المقهورين، ومن سواعد الطبقات الاجتماعية التي تمتلك ما تخسره ولكنها مستعدّة رغم ذلك أن تقدّمه. ويسكت من يعوّل على قدرة الاحتلال على إنهاء ظاهرة المقاومة، وهنا في الحقيقة انتصاران، الواحد شرط الآخر: انتصار تكتيكي نسبي نجحت فيه المقاومة، وانتصار سياسي رمزي تقدّمه لنا سواعد المخيّمات. رغم ما سبق، فإنّ قصة المخيم لم تنته، بل لربما أيضاً، والأهم، ثمّة ما يلوح خارج المخيّم. يعود العدو من حملته في جنين ليروّج لبعض الإنجازات بما فيها بعض الاعتقالات والاغتيالات التي حقّقها في العملية الأخيرة، وما اكتسبه من معرفة حول شكل الأسلحة المتاحة ونوعها ومصادرة البعض منها، وعلى تحرّكات وشكل التموضع الدفاعي للمقاومين في العملية نفسها. يعود ليتعلّم دروس المعركة، دروس ستساهم في صياغة شكل التدخّلات العسكرية القادمة. ويلوح أيضاً تعاظم السخط الاجتماعي على قيادات كانت تأتي لـ«العزاء» أو «التضامن» بعد الحدث في قرية ترمسعيا وجنين، تعاظم للهوّة التي تسارع من عمليات الانفكاك الاجتماعي عن القيادات.

البلاد

ملف

المكانة والمكان في خدمة المشتبك

موسى جرادات

في اللحظة التي بدأت بها قوافل المهجّرين تخرج من أحياء مخيم جنين، باتجاه المدينة وأريافها، أعلنت حالة استنفار شعبي في كل المحافظة، وتجند المئات من الشبان من داخل المدينة وخارجها، لتأمين كل مستلزمات المهجرين، وعبر وسائل التواصل الاجتماعي التي امتلأت صفحاتها، بإعلانات تتحدّث عن توافر مستلزمات الحياة

المرأة التي كتبت الورقة للمقاتلين في المخيم، كتبت البيان الاول وحددت الاولويات، «الاكل والمال والبيت، فدا المقاتلين»، و«الإنسان المقاوم وبارودته هي الاصل والبوصلة»

كافة لهؤلاء النازحين، من مأكل وملبس ومسكن.

جميع تلك الإعلانات التي كانت وليدة تلك اللحظة، تترجمت على الأرض، والدافع واضح وجلي، فاهل المخيم قدموا الغالي والنفيس، وخيرة الشباب في قتال مع المحتل، وابسط ما يقدّم لهم هو الاحتضان. الضمير الجمعي، والوعي الشعبي، كان السبّاق في التقاط اللحظة، فمشهد العز الذي سطرته ساحات المعركة في المخيم، كان تعبيراً عن الكل الفلسطيني.

يقول إبراهيم محمد لـ «الأخبار»، وهو أحد المشاركين في اللحظة الأولى لاستقبال المهجّرين في المدينة: «لقد ذهلت من المشهد العام، بعد أن رأيت المئات من الشبان قد سبقوني للاستقبال، ومعهم كل ما يلزم اللحظات الأولى، من سيارات خاصة، وماء للشرب، والكثير من المواد الغذائية، إضافة إلى توفير كميات كبيرة من الملابس الجديدة ولمختلف الأعمار، خاصة أن المهجرين خرجوا من منازلهم لا يحملون أي شيء».

تطورت بعد اللحظات الأولى حالة النفير العام بين الأهالي، خاصة بعد إعلان الاحتلال انسحابه من المدينة والمخيم، فالعمل الإغاثي بالنسبة للفلسطينيين، له تاريخ طويل، لكن ما يميز هذا العمل بالتحديد، كما يقول أسامة ولبد، أن «الاستجابة الشعبية السريعة والمنظمة أتت بعيداً عن كل الأطر الرسمية، وهذا عامل لنجاحها، فالاحتلال تقصّد من خلال فرض عملية التهجير على أهالي المخيم، كسر المقاومة، عبر التأثير على الحاضنة الشعبية لها، وهم في هذه الحالة سكان المخيم، وإذ بالحاضنة تتوسع، ليصل مداها الأوسع والأرحب، وتطال مختلف محافظات الضفة الغربية».

ويشار هنا إلى أن أصحاب المحال التجارية في كل مدن الضفة، وكذلك بلديات المدن والقرى أعلنت في الأيام الأخيرة عن حملات إغاثية لجنين، عبر جمع المواد العينية للمدينة ومخيمها.

بعد انسحاب قوات الاحتلال

لم تصدر إحصاءات دقيقة، لحجم الخسائر المادية التي حدثت نتيجة المعركة، لكن التقديرات تشير إلى وجود أكثر من 300 منزل تضرّر من القصف (يشمل الضرر الكلي أو الجزئي)، في حين قامت جرافات الاحتلال بتدمير كل الطرق التي تصل إلى المخيم وحتى الشوارع التي تصل المخيم بأحياء الهدف والجاربريات، إضافة إلى تعطيل شبكة المياه والكهرباء وقطعها عن المخيم. وتشير بعض البيانات الصادرة عن بلدية جنين أن حجم الخسائر الناجمة من العملية العسكرية الإسرائيلية، على جنين ومخيمها، تقدر بـ 15 مليون دولار، في حين أشارت الفاعليات الاقتصادية أن الخسائر الكلية المباشرة وغير المباشرة تجاوزت الـ 40 مليون دولار.

وأمام هذا الكم الكبير من الخسائر، لا تستطيع الحملات الإغاثية وحدها أن تسد تلك الفجوة، كما أكد لـ «الأخبار» الناشط سائد الغالب: «الهدف من كل الحملات الإغاثية، هو إيصال رسالة إلى المحتل، وإلى كل معني بالأمر، أن المقاومة في جنين هي العنوان الفلسطيني الأول لوحدتنا، وقد كشف حجم التفاعل الشعبي في العمل الاجتماعي والتطوعي والإغاثي، مدى ارتباط الكل الفلسطيني بحالة المقاومة، يكفي أن تشاهد إزالة آثار المعركة في كل شوارع المدينة والمخيم من قبل الشبان في الساعات الأولى لانتهاء المعركة لتدرك عظمة الشعب الفلسطيني، لقد وصل العشرات من الشبان من الخليل والقدس ونابلس وحتى من مدن الداخل المحتل للمشاركة في هذا الواجب»، وفي سؤالنا عن مدى ديمومة هذا الفعل، وهل يتعدّى لحظة التأثير العاطفي، أشار سائد إلى أن هذا الأمر أكبر من لحظة عاطفية، كما أنه تحديد مسار: «الشعب الفلسطيني يريد المقاومة، والمقاومة هي الوحيدة التي تحميه، والواجب الوقوف معها، أنظر إلى كل مخابز المدينة توزع الخبز المجاني على الجميع، وكذلك الكثير من المحال التجارية، تحديداً محال المواد الغذائية. ربما يكون هذا الفعل من قبل أصحاب تلك المحال، وربما بتمويل من بعض رجال الأعمال، لكن لا فرق، فالضفة لم تشهد هذا التعاضد منذ سنوات طويلة، وهذه اللحظة لا يمكن التفريط بها، لأن اللحمة هي التي ستمكّننا من مواصلة طريق النضال والكفاح، لقد كشف الفلسطيني عن وجهه الحقيقي».

(أ ف ب)

أمّا الناشط رؤوف طحاينة، فقد أشار بدوره إلى نقطة في هذا السياق: «لقد قرأ الفلسطيني جيداً أهداف الاحتلال من هذه الحملة، واطّلع على دفاتره كلمة كلمة، وعمل بعكسها تماماً، وهذا ما يؤرق المحتل اليوم؛ فالمعركة خسرها في الميدان، وفي ساحة الوعي». وبعد أن هُزمت جميع أهدافه، وأستخلاصاً للعبر، يقول المحامي أحمد شواهنة: «الاحتلال يخشى حالة الاحتضان للمقاومة، وحالة التكافل الاجتماعي والإنساني بين الناس، كما يخشى العبوات التي مزّقت جنوده ودمّرت آلياته. الحاضنة الصادقة ضمانة حقيقية وخير مُطلق للجميع؛ حمى الله أبطال الكتيبة ورفاقهم». ويرى شواهنة أن المطلوب الآن من الكل الفلسطيني وعلى رأسهم السلطة أن «يتم بناء ما دمّره الاحتلال في مخيم الصمود والمعجزة في وقت قصير جداً، وعدم المماطلة والتسويف في تعمير ما دمره العدوان وتعويض الناس عن ممتلكاتهم التي تم تدميرها في هذه الحرب غير المتكافئة».

العمل الطوعي عمود المقاومة

في التجربة السابقة، وفي السنوات التي سبقت اندلاع الانتفاضة الكبرى انتفاضة الحجارة عام 1987، تشكّلت حركات شبابية تطوعية، انخرطت في ميدان العمل الشعبي والإغاثي، وتحوّلت في لحظة الانتفاضة لتكون العمود الفقري لكل الفصائل الفلسطينية في الضفة وغزة، وعلى أكتاف تلك الحركات الشبابية (حركة الشبيبة للعمل الاجتماعي، لجان العمل التطوعي والكتلة الإسلامية) أخذت الانتفاضة مدًى ومداها. فكل القوى الفلسطينية تدرك، ومن خلال التجربة، أن حاضنتها الشعبية هي العنصر المركزي والأساس في ديمومة الصراع مع المحتل، ومن دون تلك الحاضنة لا يمكن الاستمرار بإدارة الصراع. وربما هذه اللحظات اليوم تفتح الباب للوصل بين القوى النخبوية ومجتمعاتها المحلية، التي لا تطلب الكثير، فالمرأة التي كتبت الورقة للمقاتلين في المخيم، كتبت البيان الأوّل وحددت الأولويات: «الأكل والمال والبيت، فدا المقاتلين»، و«الإنسان المقاوم وبارودته هي الأصل والبوصلة». صحيح أن الكلمات كانت قصيرة ومقتضبة، لكنها لخّصت الموقف ونطقت بكل إرادة الفلسطينيين، وصاحب القول لا يهزم مهما تنوعت المصاعب ومهما تجبّر الاحتلال.

هوامش هامشية مهمّشة

زاهر أبو حمدة

قبل بدء عدوان الاحتلال ضد جنين، نشرت «كتيبة العياش» فيديو تبني إطلاق صاروخ بدائي الصنع وقع قرب مرج بن عامر. لم يُسجل إصابات لكن الاحتلال استغل الأمر للترويج أن جنين أصبحت «بؤرة صواريخ». في البداية تباهى إعلام حركة «حماس» بذلك، وأنه إنجاز كبير لكتائب «القسام»، لكن الحركة عادت ونفت علمها بالصاروخ ومطلقيه. وهنا يُسجل التسرّع بالتساوق مع روايات الاحتلال من دون التدقيق بالأهداف والسياق. فهذه الرواية كانت ترويجاً لسبب العدوان، وربما لو فتشنا أكثر لاكتشفنا أن «الشاباك» فبرك الفيديو لا أكثر. وهذا ينسحب أيضاً على مسألة تبني الشهداء ومنفذي العمليات الفدائية، وهذا ما حدث مع عملية عبد الوهاب الخلايلة في تل أبيب. فالخطأ باسم المنفذ ومن ثم نفي أهله انتماءه لفصيل معين، يؤكد أن التنافس الحزبي بهذا الشكل أصبح مضراً بصورة التنظيم المُعلِن قبل أن يضر بصورة المقاومة بشكل عام.

■■■

تبنّت وسائل إعلام عربية مصطلح «عملية عسكرية»، إنما في الحقيقة هو عدوان مكتمل الأركان. الحرب هي حرب مصطلحات أيضاً، فحين ينقل المراسل أن «اشتباكات بين الجيش الإسرائيلي والفلسطينيين في جنين» يؤكد عن عمد أو جهل أن هناك تكافؤاً بين المهاجم والمدافع، والأصح أن فلسطينيين يتصدون لاعتداء جيش الاحتلال. والأكثر إسفافاً هو الترويج للاسم الإسرائيلي للمعركة (بيت وحديقة) بدل تكثيف الاسم الفلسطيني (بأس جنين). ولو أردنا أن نُجمّل الخطاب الإعلامي لوسائل إعلام معينة، ربما نكتشف أنها تنقل الرواية الإسرائيلية إلى المتابعين بلسان عربي، لكنه عبري في الأصل.

■■■

تابعت منصات محسوبة على حركة «حماس» اشتباكاتها «التافهة» مع السلطة وقيادتها في خلال العدوان، ولم تكتفِ صفحات مثل «مش هيك» و«الشمطلي» بالهجوم الشخصي، إنما تعدته إلى التحريض المباشر، ما يمكن اعتباره دعوة لتوجيه السلاح نحو مقرات السلطة بدل جيش الاحتلال. فيما «تفنن» تلفزيون فلسطين الرسمي بالهجوم أيضاً ضد «حماس» مع أن الاحتلال لا يفرق بين فصيل وآخر في المعركة. ماذا لو اتفق الفلسطينيون على خطاب تحريضي تعبوي ضد الاحتلال وحكومته؟ بكل تأكيد سيكون بداية الاتفاق على إدارة المرحلة الدموية. أمّا غالبية ما يُطلق عليهم وصف «المؤثرين» في «سوشيال ميديا» ربما لم يعرفوا أن هناك عدواناً في جنين، أو أنهم خائفون على تقييد حساباتهم، فتجاهلوا الدم الفلسطيني، إلا أن ميا خليفة لم تهتم وسجلت فيديو هاماً بمضمونه ولغته وتوقيته. فشكراً لميا وسحقاً للمرتجفين أصحاب ملايين المتابعين.

■■■

بعد انتهاء العدوان، دخل المراسلون الصحافيون إلى مخيم جنين، ونقلوا رسائل صحافية مهمة من الناس الصامدين. لكن تصوير ما سمّاه الاحتلال «خنادق وأنفاق» تحت المساجد ورياض الأطفال، يثبت الرواية الإسرائيلية. صحيح أنه من المهم «تصدير القوة» الفلسطينية، لكن ليس بكشف مواقع حساسة ونقلها صحافياً على أنها قدرات كبيرة وإمكانات عظيمة، وهي في الحقيقة اجتهاد بسيط للمقاومين، ولا يمكن اعتبارها أنفاقاً مؤهلة كما وصفها الاحتلال. وحبذا لو ركّز الصحافيون أكثر على القصص الإنسانية لأهالي المخيم وذوي الشهداء، وعلى تدمير الاحتلال للبنية التحتية للمخيم.

■■■

أعلنت وزارة الصحة الفلسطينية أن شهداء العدوان أصيب غالبيتهم في الرأس والصدر. وعند تشييع الجثامين اتضح أن منهم مقاتلين في الميدان، وهنا يمكن العمل على تجهيز الفدائيين بخوذ للرأس ودروع للصدر، ما يخفف عدد الشهداء باعتبار أن العدوان سيتبعه عدوان آخر. وهذه النقطة هامة بمستوى أهمية السلاح والرصاص. ولعل هناك سؤال طرحه المحبون: لماذا لا يُقتل الجندي الإسرائيلي بسهولة؟ الإجابة بسيطة جداً: هذا الجندي يُكلف مئات آلاف الدولارات بالتجهيز والتدريب والتسليح والتدريب، فلو لم تكن الإصابة في مقتل (على الأغلب في مساحة مكشوفة من الجسم) فموته سيكون صعباً.

■■■

طلّ أحد قادة الفصائل الفلسطينية، ليحذّر من تجاوز الاحتلال «الخطوط الحمر» في جنين ومخيمها. لم يفصّل ماذا تعني هذه الخطوط؛ علماً أن شوارع لونها أحمر فعلاً بفعل الدماء الفلسطينية. هذا يفترض أنه تهديد، لكن مفعوله معاكس جماهيرياً، ويمكن تفسيره بشكل خاطئ، أي أن هناك معرفة لدى الاحتلال بهذه الخطوط عبر إعلامه بها مسبقاً. والأهم أن ذلك لا يعكس مصارحة واضحة مع الجمهور ما يؤثر على معنويات الجبهة الداخلية وفقدان المصداقية بين القيادة والقاعدة.

■■■

في خضم العدوان على جنين، نظّمت الحركة الإسلامية (الجناح الشمالي) تظاهرة أمام سفارة السويد في تل أبيب رفضاً لإحراق نسخة من المصحف الكريم أمام مسجد في ستوكهولم. وعلى أهمية الأمر، لكن حرق نسخة من المصحف قرية عوريف الفلسطينية، والعدوان على جنين لا يستحق تظاهرة من المنظمين. يبدو أن «فقه الأولويات» يحتاج إلى إعادة ترتيب عند البعض.

■■■

تظاهر اليمنيون في صنعاء تضامناً مع جنين. لكن دول الطوق لم تسجل تظاهرات متضامنة ومنددة بالعدوان. وهنا السؤال: لماذا تأخّرت التظاهرات في المخيمات الفلسطينية؟ ولماذا لم تُنظم تظاهرة في بيروت أو دمشق أو عمّان؟ وحتى على المستوى السياسي، لم تجتمع الفصائل الموجودة في دمشق وتصدر بياناً موحداً. ربما توقعوا أن يتجاوز العدوان 48 ساعة، فالمدة غير كافية للاجتماع وتنظيم تظاهرات معنوية تسند أهل جنين.

المطرودون من الأرض مطارَدون

نبيه عواضة

صيف عام 1982، رعدت السماء من صوت هزّ أبنية مكتظّة بالسكان. وأحالها خلال دقائق إلى ركام. تناثرت أجساد قاطنيها أشلاء وضاعت في الحطام. الدخان الأسود الكثيف المتصاعد عمودياً من حيّ الفاكهاني في بيروت بعد كل غارة لطائرة حربية إسرائيلية، تستدلّ به سيارات الإسعاف إلى حيث الفاجعة. كثر لم يسعفهم الوقت لحمل صغارهم وكبارهم والنجاة بهم من الموت، فتحوّلوا إلى مفقودين مجهولين. «نجا» منهم من فاز بالعزاء بعدما دلّت عليه بطاقة لاجئ ظلّ يمسكها بيده التي كانت تمتدّ محطمة تحت الأنقاض، قصار له ضريح في المنفى.

صيف عام 2023، كسر هدوء ساعات الفجر الأولى، تمركز عدد من الآليات عند أطراف مخيم جنين. تمركز ترافق مع إطلاق كثيف للرصاص، ورميات من القذائف مهّدت لمحاولات التوغّل في أحياء المخيم. طائرات حربية شاركت هي الأخرى بتوجيه صواريخها نحو أهداف محددة داخل المخيم الذي اهتز على وقع الانفجارات. تدمّرت مبان، توزّع سكّانها بين طفلة شهيدة وشاب شهيد، ومشرّدين أحياء كتب لهم أن يتحوّلوا إلى لاجئين مرة أخرى، هذه المرة من المخيم. هؤلاء الذين نزلوا قبل سنوات من جبال الكرمل، ساروا مع المنحدرات نحو الجنوب الشرقي لتستقر بهم الرحلة في مدينة ذاع صيتها يوم ثارت على الإنكليز.

لصيقة هي العلاقة مع الصفة. لاجئون هنا ولاجئون هناك. تحت القصف لاجئ وبين الركام لاجئ. في الموت كما في الحياة. هل تحوّلت هذه الكنية المضافة إلى الفلسطيني إلى هدف بحد ذاته؟ إلى موقع عسكري تخرج إليه أسراب الطائرات الحربية المتطورة، لتقذفه بأعتى الأسلحة؟ إلى شاب أغار بسلاح أو بسكين على مستوطن، فجنّد العدو لقتله وحدات متخصصة، قوات خاصة، كتيبة ولواء وجيش كامل وطائرات؟

إلى هذه الحدود، تقلّصت المسافة في المعركة الوجودية. المطرودون من أرضهم مطاردون إلى آخر جيل منهم. مطلوب القضاء عليهم أينما وجدوا. فما كادت الطائرة تقلع من مطارها العسكري حتى كانت تنفذ غارة على مخيم جنين. إنه منطقة يمكن الوصول إليها سيراً على الأقدام من أقرب نقطة متاخمة في فلسطين المحتلة عام 48، يتم دكّها بالمدفعية والصواريخ والطائرات. هذه المنطقة ليست غزة ولا الفاكهاني، ولا تلال الناعمة، ولا الحدود اللبنانية السورية، هذه ليست مخيم البرمول ولا ضواحي حمص وحلب ودمشق، هذه لا تتكلّم عن تونس أو دير الزور أو حتى مفاعل العراق النووي. هذه أيضاً ليست هدفاً غامضاً وقع عليه الخيار الإسرائيلي في مرتفعات صنعاء ذات عملية صامتة جرى الوصول إليها بخفّة التحليق لمسافات بعيدة وفي ليلة غادرة. هذا مخيم جنين، وإن صار يحمل ويختزل كل أسماء الأماكن أعلاه. فإنه الموقع المتقدّم الذي لا يبعد عمّا يسمى «الخط الأخضر» سوى بضعة كيلومترات قليلة.

(أ ف ب)

المسألة في الصفة التي لم تنجح معها كل عمليات الإخضاع. فشل حزب «بيت إيل» (مقر التنسيق الأمني بين السلطة الفلسطينية والاحتلال) في إنزال الأسود من عرينها. فشل أيضاً في لجم استنساخ تجارب «الكتائب» الموزعة بين طوباس ونابلس وقباطية وجنين، وخلفه، ومن وراء الحدود وبالتكافل، فشل أيضاً المراهنون على التوطين من أجل تغيير ملامح هذا الذي اسمه «قوم جبارين». فشلوا في كل السياسات التي استخدموها من أجل صرفهم نحو الغرق في متاعب الحياة اليومية، نحو إخضاعهم وإذلالهم كي لا تقوم لهم قائمة من الجوع والتشرّد والشتات، يصبحون في حالة من الاغتراب عن التاريخ والحاضر.

لاجئ صار هدفاً عسكرياً. إنه أكثر من صراع على التاريخ. إنها الجغرافيا بذاتها التي تنجب أبناءها وتهب أصحاب الأرض سماتها القاهرة للغزاة... كل الغزاة.

الأخبار
al-akhbar
السبت 8 تموز 2023 العدد 4956

مفكرة

أميمة وزياد: في ذاكرتي

غداً الأحد، تقدّم الفنانة أميمة الخليل (الصورة) والموسيقي زياد الأحمدية حفلة جديدة تحت عنوان «في ذاكرتي»، وهذه المرة في «فارمفيل» (الباروك ـ الشوف).
إنّه التعاون الرابع للثنائي بعد أمسية «المتحف الوطني» عام 2022 و«قصر دبانة» في صيدا و«الرابطة الثقافية في طرابلس» في آذار (مارس) الماضي، حيث غنت صاحبة «عصفور طلّ من الشباك» باقة من أغانيها الخاصة، إضافة إلى أخرى لكبار الفنانين العرب راسخة في ذاكرة الجمهور.

«في ذاكرتي»: غداً الأحد ـ س: 20:30 ـ «فارمفيل» (الباروك ـ الشوف). للاستعلام: 03/606026

ماريا الدويهي ... آخر بروفا

تعود ماريا الدويهي (الصورة) إلى «مسرح مونو»، بين 21 و23 تموز (يوليو) الحالي، بعروض جديدة من الكوميديا السوداء «آخر بروفا» (من كتابتها وإخراج شادي الهبر)، لتأخذ الجمهور في «رحلة وجدانية تتنقل فيها بين المشاعر والرغبات، في ظلّ محاولات لاستمالة الحبيب الغائب...»، وفق النص التعريفي الخاص بالعمل. وحدها على المسرح، تتنقّل الدويهي بين شخصيات ومستويات نفسية عدّة، تجذب عبرها الجمهور بأداء تمثيلي لافت لمتابعة السردية بتشويق ومتعة.

«آخر بروفا»: من الجمعة 21 لغاية الأحد 23 تموز 2023 ـ س: 19:30 ـ «مسرح مونو» (الأشرفية ـ بيروت). البطاقات متوافرة في «مكتبة أنطوان» وعبر موقعها الإلكتروني.

خمس سنوات من «مجدرة حمرا»

بعد خمس سنوات على إطلاقها، تواصل مسرحية «مجدرة حمرا» (كتابة وإخراج يحيى حابر) عروضها، وتصل في 15 تموز (يوليو) الحالي إلى حمّانا. تنفرد أنجو الريحان (الصورة) بتجسيد شخصيات ثلاث نساء من منطقة النبطية (جنوباً)، ولكل منهنّ قصة: فطم الأرملة، ومريم الكاتبة، وسعاد التي تفتح قلب الرجل بطبخة المجدرة. من خلال هؤلاء النساء، يعرض العمل قصصاً اجتماعية من زواج، وطلاق، وغربة، وطبخ، وغيرها بأسلوب مثير للاهتمام يتّكئ إلى أداء أنجو المتمكّن.

«مجدرة حمرا»: السبت 15 تموز 2023 ـ س: 20:30 ـ «بيت الفنان حمّانا» (المسرح الخارجي). الدخول مجاني والحجز ضروري. للاستعلام: 76/907348

بيروت بعيون... أغاتانغل كريمسكي

ضمن سلسلة «قراءة في كتاب عن تراث بيروت»، تدعو «جمعية تراث بيروت» بالتعاون مع «جمعية السبيل»، في 20 تموز (يوليو) الحالي، إلى لقاء حول كتاب «قصص بيروتية» الذي كتبه المستعرب الروسي أغاتانغل كريمسكي (1871 ـ 1942/ الصورة) في عام 1897، وحقّقه دراسةً وترجمةً عماد الدين رائف، في مناسبة صدور طبعة يوبيليّة (دار رياض الريّس). يقدّم رائف الأمسية التي سيتخلّلها حوار مع الحضور وتوقيع للعمل الذي يضمّ نصوصاً تحكي قصص التحوّلات الاجتماعية في بيروت، في ظلّ نفوذ الإرساليات الكاثوليكية.

قراءة في «قصص بيروتية»: الخميس 20 تموز 2023 ـ س: 18:30 ـ «المكتبة العامة لبلدية بيروت» (مونو ـ الأشرفية). للاستعلام: 01/664647

بينك فلويد: ما وراء الجدار

مساء اليوم السبت، تضرب فرقة «بريك فلويد» (الصورة) التي تحيي أعمال «بينك فلويد»، موعداً جديداً في «ستايشن بيروت»، في حفلة بعنوان Beyond the Wall (ما وراء الجدار) تؤدّي فيها ألبوم The Wall (عام 1979) كاملاً، مع عروض ضوئية اشتهرت الفرقة الأصلية بتقديمها. تتألّف «بريك فلويد» من الأشقاء ماثيو (غيتار وغناء) وكريستوفر (غناء وباص وكيبورد) وآندرو (إيقاع) وإليزابيت (درامز) ووالدهم أورلاندو (درامز) أبو جودة.
ويعود ريع الأمسية إلى منظمة Brave Heart التي تُعنى بالأطفال المحتاجين ذوي أمراض القلب.

حفلة Beyond the Wall: اليوم السبت ـ س: 19:30 ـ «ستايشن بيروت» (جسر الواطي ـ سنّ الفيل/ بعبدا) ـ للاستعلام: 03/317388

تصميم فرانسوا الدويهي

انشغالات هادئة

بول مخلوف

إذا انتعلت حذاءً رياضياً، ذات ماركة موثوقة وموديل آخر صيحة، فذلك لن يساعدك على اللحاق بركاب العالم، حتى ولو أنه حذاء رياضيّ جديد، فلن يكون مفيداً إن قرّرت الهرولة وراء مانشيتات الأخبار التي تشبه، بإنشائها وتراكيبها، هذياناً سريع التداعي يُقدم عليه مختلّ لا يتوانى عن إظهار لسانه بعد كل حرف ينطق به.
العالم حافل في سباقات الركض الطويل، وكل الأحذية سواء؛ مهترئة تتآكلها الثقوب. إن استطعت مواكبة انقلاب فتيان فاغنر، والاحتجاجات العارمة في فرنسا، وسرعة اللكمات داخل حلبة المصارعة التي يتبارز عليها إيلون ماسك ومارك زوكربرغ (وقراءة مقالات إنما) دفعةً واحدة، فستضع الأجيال المقبلة صورتك في ألبوم الفلاسفة الذين نجحوا في المشي بالموازاة، خطوة بخطوة، مع التاريخ.
الاستيقاظ. التاكسي. بدء العمل. استراحة الغداء. العمل (مجدداً). تاكسي. المنزل. التلفاز. الحرب. السلم. التظاهرات. الاتفاقات. النوم (متقطّع وقليل) ومقولة كتبها نيتشه منذ أكثر من عقدين خرجت من النص وتحققت «بافتقارها إلى الهدوء تنزلق حضارتنا نحو الهمجية». والانزلاق في الكثير من الأحيان، يليه السقوط، والسقوط على الرأس موجع، وخصوصاً إن حدث في حلبة الجري السريع. إذا كان لحضارة اليوم تمثال حرية خاص بها، فسيكون كومبيوتراً كبيراً له أذنان وفم، تتحدث معه فيستجيب، ويتحدث معك. هذا هو الذكاء الاصطناعي، والذي يمثل طوطم الهمجية التي وقعت حضارتنا في أتونها. والذكاء الاصطناعي، أو «إي آي»، ينحدر من نسبه ما هو معروف بـ«تشات جي بي تي». والأخير برنامج يمتاز بسرعة خارقة، وذاكرة رهيبة، لا أتباع الغزالي شككوا بذكائه، كما أنه لم يخضع لمنهج (الشك) ديكارت. وبالرغم من أن تشات «جي بي تي» لا يزال لحد الآن منضبطاً، مطيعاً، ويجيد التصرف، إلا أنه يترك رعباً موحشاً داخل الكائن البشري كلما تحدث عنه حتى باتت مفردة المستقبل تعني له ثقباً أسود يستعدّ للانقضاض على أبناء جنسه. إنها رغبة إنسانية معاصرة تقضي بأن يخضع كل شيء لمبدأ السرعة، وبأن يخطو كل شيء وفقاً لمسار «الديلفري»، فخذ، إذاً، هذا الروبوت ولا تتذمر عن قلقك!
منذ فترةٍ وجيزة، أقدم التشات «جي بي تي» على تحدّي إنسان في امتحان فلسفي، وهي حادثة أعادت التذكير بمباراة الشطرنج التي جمعت اللاعب الروسي كاسباروف مع روبوت، حيث انتصر الأخير. في 14 حزيران من العام الحالي، تنافس الفيلسوف الفرنسي رفائييل إنتهوفين مع «التشات جي بي تي» للإجابة عن سؤال فلسفي يندرج في منهج البكالوريا ويتعلق بمفهوم السعادة، «هل السعادة مسألة عقل؟». أجاب الذكاء الاصطناعي في دقيقتين، والفيلسوف في ساعة وربع ساعة. حصل الأول على علامة واهية (11 على 20) وذلك بسبب جمله الهشّة، الطويلة، والجوفاء، الخالية من المضمون، بالرغم من استدلاله بمفكرين مثل كانط وفرويد، لكن اقتباساته بقيت مقتضبة وغير كاملة، فيما حصد رفائييل إنتهوفين على العلامة كاملة.
أخفق الذكاء الاصطناعي في إعطائنا الخلطة السحرية عن السعادة مثلما يخفق البشر عندما يخرجون عن التنظير عن السعادة ويعجزون عن القبض عليها وعيشها. فهل هنالك، في النهاية، فائدة من ذكاء كهذا؟ ثم أين يكمن الخط الفاصل بين الاصطناعي والإنساني؟ ربما، يقبع الافتراض من أصله في قول الصديق (العزيز) طالب شحادة: «... كتبت أن الروبوت يثير شفقتي، لكن الإنسان يبكيني تماماً».
داخل هذه المطحنة - السريعة، وكأن العالم أشبه بماكنة «مولينكس» - التي تعصر الكائن البشري، وجب أن تولد أسئلة كثيرة عوضاً عن وفرة الأجوبة الشائعة، إذ ممكن للتأقلم أن يكون جواباً، وعدم الشكّ أيضاً، وعلى أحدنا التمهل والتؤدة لكي يبقى محافظاً على إنسانيته. وبعيداً عن هذا الطحن العبثي والمجاني، وعلى ناصية السعادة، يعرض هذا العدد من «إنما» انشغالات كتّابه، انشغالات ستبدو، في المقام الأول، إنسانية، أولاً لأنها تدور حول مآل اللغة، وأشكال الكتابة، وعن اللغة نفسها في المبنى والمعنى، والهدوء والتروّي في التفكير عن الكتابة والكتابة عنها. هي انشغالات هادئة، في عصر سريع مزدحم، يأخذ من الـ«إي آي» إلهه الجديد، وهو إله غير آبه بأفول اللغة، ولا بموت الإنسان، ولا بدلالة الرسالة أو حتى بالرسالة نفسها والتي يبدو أنها ستمحى، مع الوقت على يده وستتحوّل من اتصال وتواصل، إلى فعل أمر جازم.

لقراءة ملحق «إنما»

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

رئيس التحرير
ابراهيم الأمين
مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

المدير الفني
صلاح الموسى

المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
تلفاكس: 01759500 01759597
ص.ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
التوزيع
شركة الأوائل
15ـ 01/ 666314 ـ 03 / 828381
الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar

السبت 8 تموز 2023
العدد 4956 السنة السابعة عشرة
Samedi 8 Juillet 2023 nº 4956 17ème année

كلمات

ملحق
أسبوعي

www.al-akhbar.com

ولا تموتوا إلّا بين زخات الرصاص

(غسان كنفاني)

[6-2]

ذكرى | 51 عاماً على استشهاد المناضل الرمز

غسان كنفاني سبقَنا إلى عكّا

القصير لها، فالمقاومة المسلحة في عرفه ليست قشرة، بل ثمرة لزرعة ضاربة جذورها عميقاً في الأرض. وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقيّة، فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير، وإرادة التحرير ليست سوى نتاج طبيعي ومنطقي وحتمي للمقاومة التي تتخذ شكلها الرائد في العمل السياسي والثقافي. وبهذا المعنى، فإنّ الشكل الثقافي في المقاومة ليس أقل أهمية من المقاومة المسلحة بل هو الأرض الخصبة التي تستولدها. لكنّ سؤالاً لا بدّ من أن يُطرح حول مقدار راهنيّة غسان اليوم فكراً ونضالاً. بعد مرور أكثر من نصف قرن على استشهاده، وهو الذي لم يعش أكثر من 36 عاماً، فهل تبقى الأفكار صالحة بعد كل هذا الوقت للاستلهام الثوري؟ وهل يمكن الربط بين تصاعد وتيرة العمليات الفدائيّة وتوسّع رقعتها ووصولها إلى أماكن لم يفكّر العدو يوماً أنها ستصبح خاصرة رخوة لكيانه الهشّ، واقتراب حلم التحرير الكامل من التحقيق، وبين طيف غسان ورجال آخرين ظن العدو أنّه تخلص – بالقتل – من خطرهم إلى الأبد؟ سؤال حملته «الأخبار» إلى أدباء وشعراء فلسطينيين في الذكرى الحادية والخمسين لاستشهاد المناضل الرمز الذي كان ملهماً لأجيال كثيرة. ونظرته إلى الكتابة بصفتها شكلاً من أشكال الكفاح الإنساني بمعناه الأشمل والأوسع

إعداد **مهدي زلزلي**

مع كل مقاوم

رشاد أبو شاور (*)

عرفت غسان كنفاني سنوات قليلة عن قُرب، وعرفته أكثر وأعمق وأنا أقرأ كل ما كتب في حياته القصيرة، وأعيد قراءة ما كتب من روايات، وقصص قصيرة، وكما تعلّم هو من القاصة والمترجمة سميرة عزّام تعلّمنا منه، وفي مقدّمة ما تعلمناه: أن تكون حياتنا جادّة وصادقة وأن نقرن الكتابة بالفعل، وهو ما اختطه بعضنا لنفسه، وما زال وفيّاً له، سائراً على نهج غسان كنفاني. نتذكّره ليس لأنّه استشهد، واستشهاده قيمة مضافة تحققت له، وتوّجت حياته القصيرة، وأعطت مصداقية لكل كلمة كتبها، فهو كتب في الميدان، ولم يكن متفرّجاً... ولكن لأنه ترك لنا زاداً فكرياً نتغذّى منه في معركة وجودنا كأمّة.

منذ البداية، في قصصه القصيرة التي ضمّتها مجموعاته «عالم ليس لنا» و«موت سرير رقم 12» و«أرض البرتقال الحزين»، قدّم غسان قصصاً مختلفة، لا تستدرّ الشفقة، لكنها تُشخّص المعاناة بعمق، وبتقنية متجدّدة توصل نصوصه وما تتضمّنه من أبعاد إنسانيّة في التجربة الفلسطينيّة. عندما قدّم غسان للقارئ العربي روايتيه «رجال في الشمس» و«ما تبقّى لكم» أضاف جديداً إلى الفن الروائي العربي، فتلقّف القارئ العربي هذين العملين بما فيهما من تجديد، ورؤية، ومفهوم للمكان (المتحرّك) في «رجال في الشمس»، والزمان (المحايد) في الصراع بين حامد الفلسطيني و(اليهودي) التائه المدجّج بالسلاح؛ والزمن محايد إذا لم تكن فاعلاً ومواجهاً ومغيّراً لمجراه بالمقاومة. العدو الصهيوني أراد بتفجير سيارته صبيحة يوم 8 تموز 1972 به وبابنة شقيقته ليس، أن ينهي حضوره، ويقتلع تأثيره في الوعي الفلسطيني بخاصة والعربي بعامّة، وأن يُرعب من سيأتون بعده من الكُتاب والصحافيين والمفكرين والمثقفين العرب ويردعهم، ولكن بعد 51 عاماً على تمزيق جسده، ها هو يحيا أكثر، ويتجدّد حضوره مع كل مقاوم من أبناء شعبنا وأمتنا. سيبقى غسان كنفاني حيّاً ما دام شعبه الفلسطيني حيّاً ومقاوماً، وما دامت أمتنا تنجب مقاومين شعارهم فلسطين واحدة كاملة، وتواصل الصراع مع عدوّنا حتى إنهاكه واجتثاثه.

(*) روائي وقاصّ فلسطيني

نحتاج إليه...

وداد طه (*)

انتمى غسان كنفاني إلى «الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين»، وصار المتحدّث الرسمي باسمها، لكنه لم يصرح يوماً بغفلة أو خيانة أيّ حزب آخر، وقد كانت هناك خلافات جذريّة، ولكن كانت الوجهة واحدة، الأرض والإنسان، بينما نسمع اليوم ونشاهد الحروب الداخليّة، ومواقف السيادة الفارغة من أيّ معنى سياديّ حقيقي، من أطراف كلّ منها هو البطل، والواقع أنّ فلسطين لم ترجع إلى يومنا، والشرخ الإيديولوجي يتعمّق، والمصالح الشخصيّة وربما الإيغو الحزبيّ يتعالى، وقنوات الاتصال مفتوحة على كلّ احتمال، فيما الأمهات والزوجات و«موت سرير رقم 12» و«أرض البرتقال الحزين»، قدّم غسان قصصاً مختلفة، للتطرف والشخصنة والمصالح المادية، وقد كان كنفاني حرّاً من ذلك، سعيه أن يعود إلى أرض البرتقال الحزين، من دون أن يختصر بمواقفه أو يظنّ أنه يختصر الحقيقة التي توصل إلى الوطن: «الوطن ما صفية هو ألا يحدث ذلك كله» نحتاج إلى غسان كي نعي أنّ الأجساد تسقط ويبقى الوطن منارة للعابرين.

من جهة ثانية، انتبه كنفاني إلى أنّ الوطن في المستقبل: «لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط... أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل» فأين واقع السياسيين الفلسطينيين اليوم من تأسيس مستقبل فلسطينيّ قادر على محاكاة الحياة المعاصرة؟ لقد شهدنا كيف يمكن لشاب فلسطينيّ يقاوم أن يوثق لحظة استشهاده، وكيف يمكن لأغنية راب أن تعلم الناس عن حكاية فلسطين، أو لرواية شخصيّة أن تعيد صياغة لحظة تاريخيّة قد شوّهتها سرديات الاحتلال، السبب برأيي عائد إلى ارتفاع استحقاق الوعي الفردي، فالشخصية الفلسطينية عرفت تطوراً، وما عادت مختصرة في صورة المهجر أو الفدائيّ أو الشهيد، ولم يعد ممكناً إخفاء مساهمات التطور التكنولوجي في إذكاء تلك الشخصيّة وردفها بما يجعلها تحكي لغة العصر وتوصل رسائلها بدقة وسرعة ومهارة، أي إنّ الفلسطينيّ اليوم يحيا المستقبل، يحياه في مماشاة العصرنة، والإفادة من منتجات التكنولوجيا، ويعي أنّ صورة الضحية لا تليق به، وهذا ما سيجعل الوعي الجمعيّ الفلسطينيّ حرّاً من لغة الاضطهاد، مريداً لنوعية حياة أكثر تفهماً لحاجة الفرد في الطمأنينة التي ناشد بها في أرض البرتقال الحزين في حديثه عن عمر الإنسان «لقد بقيت عشر سنوات، عشر سنوات فقط، أليست جديرة بأن يعيشها الإنسان بطمأنينة؟»

نحتاج إلى غسان لنعي أنّ الحريّة هي حسن استغلال العمر في الرضى عن اللحظة المعيشة. والشهادة هي أن تقوم بالحقّ الذي عليك في اللحظة التي هي الآن وهنا، وبإمكاناتها المتاحة.

نحتاج إلى غسان لأنّ البطولة اليوم باتت تمارَس بكبسة على زرّ إرسال تغريدة، وهو عرف بطولة الأنبياء ونبوءات العارفين.

نحتاج إلى غسان كي نعي أنّ الموت لا يخيف «فالصقور لا يخيفها أين تموت». نحتاج إليه كي نجترح معجزة

> **كثيرون راوا أنّ ما قام به المقاومون الستة في جلبوع هو قرع جدران خزّانهم/ سجنهم**

الحياة بحريّة، بدءاً من تفصيل صغير كالصمت أمام هرطقات وجعجعة الكلام في بومياتنا، مروراً بالحرية من التعلق وفرض الرأي في علاقاتنا وليس نهاية بالحب، فهو أوّل كلّ شيء وآخر كلّ شيء، وهو وطن من أرض صلبة يمكن أن تحقق للفلسطينيّ الإنسان تماسّاً مع الجميع وتجربة من السماح عمقها كائن في بحثها عن الشبيه في الجميع، في النضال من أجل الحقّ، في الاعتراف بأنّ البحث عن النور لا يمكن أن يكون في غرفة معتمة، في أنّ النور هو خط النهاية.

(*) روائيّة وقاصّة فلسطينيّة.

المثقّف الملتزم

إبراهيم السعافين (*)

نذر غسّان كنفاني نفسه منذ نعومة أظفاره للتفكير في قضايا وطنه وأمته وقد اكتوى بنار اللجوء منذ طفولته بعيداً عن وطنه ما جعله يفكّر، شأن كثير من أبناء جيله، في عوامل النكبة ونتائجها. وقد أتيح له، بما امتلك من موهبة إبداعيّة مبكّرة، أن يعبّر عن هموم شعبه ومعاناته في إطار قومي وإنساني. وقد بدت جذور الرؤية لدى هذا المبدع العبقري منذ مطلع شبابه حين كتب قصته القصيرة «لؤلؤ في الطريق» في أواخر الخمسينيات، تلك القصة المنشورة في مجموعته «موت سرير رقم 12»، وهي القصة التي تجلّت رؤيتها على نحو أعمق في روايته الأولى «رجال في الشمس» التي نشرها عام 1963. رواية صوّرت هشاشة الواقع الفلسطيني وبؤسه آنذاك، فلم يكن الحلّ في نظرهم حينئذٍ إلّا الحل الفردي الذي ينجو به الناس فرادى من واقع مرير من دون تفكير في أصل المعضلة والبحث عن حلّ يستجيب لهموم الجماعة وأحلامها وتطلّعاتها. وكان يمكن لغسّان أن يجعل الرجال الثلاثة على اختلاف أعمارهم وهمومهم وتطلّعاتهم يحققون بعض أحلامهم أو أن يحقّق أحدهم هدفه القريب كما جرى في الواقع الموضوعي، لكنّه بنى روايته على وهم هذا الحلّ في الهرب شرقاً لبناء حياة جديدة ونسيان جذر المعضلة فاختار لهم نهاية مأساويّة شنيعة مذلّة، أن يموتوا خانعين مستسلمين في جوف الخزّان الذي تشوي حرارته في شهر آب أمخاخ الإبل. وكانت صرخة أبو الخيزران قائد الصهريج الفاشل على نحو ما ذهب بعض النقّاد «لماذا لم تدقّوا جدران الخزّان» بدل الاستسلام المفيظ لمصيرهم دعوةً للتفكير في الحلّ الجمعي بدل الحلّ الفردي الانهزامي باتّجاه الغرب حيث الوطن السليب وساحة المواجهة. هذه الدّعوة التي ترجمها في روايته رمزيّاً كما في «رجال في الشمس» ورواية «ما تبقّى لكم» حيث كان قدر الفتى الهارب من مواجهة الواقع أن يواجه الجندي الصهيوني في الصحراء ويستولي على سلاحه ومائه ليقتله ظمأً كما مات رجال الخزّان. إلى أن تصبح الصّرخة المدويّة دعوةً صريحة للمقاومة في رواية «عائد إلى حيفا» ورواية «أم سعد» وفي الروايات الأخرى في سياق بروز ظاهرة المقاومة ردّاً على الهزائم المتوالية منذ النكبة الصّاعقة إلى النكسة الزلزال.

غسّان كنفاني رمز الأديب المثقف الملتزم الذي قرن الكلمة بالفعل وكان استشهاده مصداق ذلك كلّه.

(*) أديب وناقد أردني مولود في الفالوجة ـ فلسطين. رئيس لجنة تحكيم «جائزة غسان كنفاني»

الأرض المتواطئة مع أبنائها...

عادل الأسطة (*)

كثيرون ممن قرأوا «رجال في الشمس» وتابعوا، في الوقت نفسه، ما قام به المقاومون الستة في جلبوع، من حفر نفق والتمرد على واقع السجن، رافضين الموت بصمت في السجن، ربطوا بين حفر النفق ورواية غسان ورأوا أن الستة قرعوا جدران خزّانهم/ سجنهم. لست أول من ربط القصتين معاً؛ قصة الرواية وما فيها من تخييل وقصة الستة الواقعية تماماً، فهناك من سبقني في ذلك، لكن ما لم يلتفت إليه أحد هو ما كتبه غسان في روايته عن علاقة الفلسطيني بأرضه ومساءلته في عالم متغير، وتحديداً بعد ستين عاماً تقريباً شهدت فيها الأرض الفلسطينية الكثير من التغيرات. في روايات كنفاني فكرة أتى عليها بكلام مباشر تارةً وكتابة غير مباشرة طوراً، هي تواطؤ الأرض الفلسطينية مع الفلسطيني ضد المستعمر الإنكليزي وتعاطفها أيضاً مع الفلسطيني ضد المحتل الإسرائيلي.

في رواية «رجال في الشمس»، تكون صحراء الكويت قاتلةً وشمسها حارقة، فالفلسطيني لم يألفها ولم يتعوّد عليها، في حين لا تكون صحراء النقب في «ما تبقّى لكم» كذلك للفلسطيني حامد. إنها تبدي تعاطفاً معه. وحين يحتمي بها خوفاً من أن يكتشف أمره وينبطح «جامداً ملتصقاً تماماً بصدري، أحس نبضه يسيل إليّ دافئاً وثابتاً...». إنها تحس به وينبضه يسيل إليها دافئاً وثابتاً. وترى أنه كان «يتفوق على خصمه بأنه لم يكن ينتظر شيئاً، مثلي. بالنسبة إلى كان يعني بقاء وليس عبوراً، هو الآخر، ولكن لأنه لم يكن يريد، بعد، الذهاب إلى أي مكان». إنها صحراؤه لا صحراء يريد أن يعبرها وحسب كصحراء الكويت «بالنسبة إليّ كان يعني بقاء لا عبوراً».

في رواية «العاشق»، غير المكتملة يتعقّب الضابط الإنكليزي بلاك المقاوم الفلسطيني عبد الكريم من دون أن يتمكن من الإمساك به، ما يجعله يقول: «فلا سائق الشاحنة كان شريكاً في الحدث، ولا النجدة وصلت في وقتها، ولا أنا عثرت على عبد الكريم... أتدري؟ كنت أقول لنفسي وأنا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب إن الأرض ذاتها هي المتواطئة والشريكة، وإنك لكي تقبض على عبد الكريم عليك أولاً أن تلقي القبض على الأرض».

كانت الأرض الفلسطينية في روايات كنفاني إذاً متواطئة مع الفلسطيني ومتعاطفة معه وكانت ملاذه وملجأه. كانت المكان الذي يحميه من المستعمر. في قصة زكريا الزبيدي وإخوانه الخمسة، لم تحمهم الأرض الفلسطينية، إذ سرعان ما اكتُشفوا والقيَ القبض عليهم ثانية. ومن المؤكد أن علاقتهم بالأرض لم تكن مثل علاقة عبد الكريم بها وأن زمنهم مختلف اختلافاً كبيراً عن زمن عبد الكريم وزمن حامد، وعدا ما أشرت إليه من اختلاف علاقة كل منهم بالأرض، فهناك التطورات التكنولوجية الهائلة التي حدثت خلال ثمانية عقود، وهناك التغييرات الكبيرة التي أجرتها الدولة العبرية على الأرض وقد التفت إليها توفيق فياض في مسرحيته «بيت الجنون».

مع ما سبق فقد بقي من الأرض الفلسطينية بعض شواهد على ذلك الزمن الفلسطيني. إنه نبات الصبار وثمر هذا النبات هو ما أسعف بعض السجناء الستة في البقاء على قيد الحياة وعدم الموت جوعاً.

(*) ناقد فلسطيني.

تواءمة البندقية مع النصّ والطلقة مع الكلمة

محمود علي السعيد (*)

باليقين المشرئبّ كعنق الحقيقة سطوعاً، وبالتأكيد القاطع الذي لا تشوبه شذرة اعتساف أو تلمسه قطرة ظنّ، أو تخامره إشارة سلب وجرعة توجّس، بأنّ راهنيّة سريان تيار الكهربة والمغنطة والمسّ لأدب أيقونة الثقافة الفلسطينيّة، وبوصلة توجّهها ومرقد أسفارها غسان كنفاني في أديم أوصال ضلعين من أضلاع مثلث الزمن الماضي والحاضر في أوج توهّجها، وأنصع عطائها، وهي تضحّ من الثمار أنضجها، والمواسم أخصبها، والموائد أوفرها وأدسمها، ومنظار عينيها يرنو إلى المستقبل تشوّقاً واستمراريّة حضور. فيمسح بانورامي لمجمل ما يدور من فعاليات كتابيّة هادفة، وأنشطة متوخّاة في ساحات واقعنا الثقافي المعيش في هذه الحقبة التاريخيّة من عمر العصر الإسبارطي الماثل ليس في ذكرى مسلسل سنوات الاستشهاد فقط بل وفي جلّ المناسبات الوطنيّة والإنسانيّة والقوميّة، تدهمك إيجاباً، وتصدمك ألقاً بعض إنجازات هذا الرقم النضالي الصعب وقت استشراء مدّ الرخاوة والضعضعة والقنوط من «عائد إلى حيفا» و«رجال في الشمس» و«أم سعد» و«ما تبقّى لكم» و«العاشق» و«أدب المقاومة في فلسطين المحتلة» وغيرها، وقد أصبحت بعض قطوفها شيفرة حكمة، وأمثولة روي، وسفارة تجربة، تلهج بها الألسن والمهج، وتتناقلها الجموع، وتعتقها الملل والمذاهب، كمقولة «لماذا لم تدقّوا جدران الخزّان» و«خيمة عن خيمة بتفرق»، فالتكافل الوظيفي، والتعاضد المنهجي لمجمل الأجناس الأدبيّة (من القصة والرواية والمسرحية والشعر والخاطرة والمقال السياسي، إضافة إلى التشكيل بلوحاته الفاتنة) في حصاد سيرورة غسان كنفاني الإبداعيّة الدنيويّة الأشهر رايةً، والأعلى منصة بالتواشج مع الفعل النضالي المنقطع النظير، وخاص الاستثناء، بتوأمة البندقية مع النصّ، والطلقة مع الكلمة، والخطوة مع المؤدى والمرمى والمبتغى، ما جعل من غسان كنفاني دون أقرانه مدرسةً تتلمذت على مقاعدها أجيال وأجيال. تعريجاً على هامش المتن القولي: كم تثلج صدورنا، وتغبط أفئدتنا، وتبتهج سريرتنا نحن (اتحاد كتّاب فلسطين ـ النادي الثقافي الفلسطيني ـ بيت الذاكرة الفلسطينية، في حلب المتنبي وسيف الدولة الحمداني والسهروردي وخير الدين الأسدي) بإحياء ذكرى غسان كنفاني في كل عام بأحرّ الأعراس عارضين فيلم «غسان كنفاني أسطورة العشق الفلسطيني» لمخرجه رامي السعيد على جمهرة من عشاق المواقف. أقول: كم أضحت القضيّة الفلسطينيّة بخاصّة، وباقي القضايا الإنسانيّة العادلة والمحقّة بعامّة ـ في هذه الأيام العصيبة من عمر التقويم الأرضي الدهري أن انبطاح سدنة الكراسي والمرتفعات يستشري كالدودة الشريطية، وأشاوس فلسطين وميامينها يرفعون اليد احتجاجاً ويسطّرون بدمهم المراق أسمى آيات البطولة والتضحية والبذل – بحاجة ماسة ومطلب ملحاح إلى فروسيّة موقفك، وشهامة وعنفوان قامتك، وقدوة وأصالة مسيرة حياتك بشقيها الكتابي والسلوكي.

(*) ناقد فلسطيني.

القلم الذي أرّق الكيان

زكريا أبو غالي (*)

رغم اغتياله الماساوي في بيروت في الثامن من تموز 1972، بقي إرثه الأدبي حيّاً حتى اليوم، واستمرّت أعماله في إلهام الأجيال اللاحقة من الكتّاب والنقاد.

غسان كنفاني رمز للكتابة الفلسطينيّة وشاهد على الصمود والإبداع في وجه القمع والاحتلال. بفضل عطائه الأدبي ونضاله السياسي، استطاع أن يرسخ مكانته كواحد من أهم الكتّاب العرب في القرن العشرين. إنّ إرث غسان الأدبي ما زال حاضراً في كلماته وأفكاره ورؤيته الثاقبة للحقيقة الفلسطينية. يستمر تأثيره في دفع الأجيال الجديدة من الكتّاب والقرّاء إلى الوقوف بجانب العدالة والحرية. وما زالت الأفكار والرؤى التي نادى بها مثل حقوق الشعب الفلسطيني وتسليط الضوء على معاناة اللاجئين الفلسطينيين، أهميّة المقاومة الشعبية والأدبية والثقافية إلى جانب المقاومة العسكرية ودور الثقافة والأدب في صناعة التغيير، الهوية الفلسطينية والتراث الفلسطيني، الوحدة الوطنية، العدالة الاجتماعية والمساواة، تلهم أجيالاً من الكتّاب الفلسطينيين والعرب حتى اليوم.

(*) سيناريست فلسطيني.

رسم لعبد طويل (أكريليك ــ 70×50 سنتم)

أمُّه زيتونةٌ وأبوه فجرٌ

جهاد الحنفي (*)

غسّانُ
والحبرُ المقدّسُ
في يديْهِ
نبوءةٌ من نارْ
غسّانُ
والقلمُ المحلّقُ
في مدى صفحاتِهِ
نسرٌ عنيدُ
لا ينامُ على انكسارْ
كانت توشوشُه المنافي لا تنمْ
البحرُ طفلٌ
مقلتاكَ سريرُه
من ذا يغنّي للصّغير
ومَن سيفتحُ للنّوارسِ راحتيْه
ومَن سيحرسُ إنْ غفوْتَ الحلمَ والأسوارْ
مَن أنتَ يا غسّانُ...
لا أدري...
لعلّ غمامةً بيضاءَ
مرّتْ ذات يوم فوق عكّا
تستطيعُ البوحَ أكثرْ...
إنّه ظلُّ السّماءِ على المرايا
لهفةُ القمرِ المشّوقِ إلى الحكايا
أمُّه زيتونةٌ
وأبوه فجرٌ
انحيازُ ذاتِ مرّالٍ
وإخوتُه الثّوابتُ...
تقولُ غمامةٌ أخرى
عرفناهُ يُحبُّ الحقّ
يعرفُ كلَّ أسرارِ السّنابلِ
يحفظُ من قصائدِها الكثيرْ
ولا ينامُ كما الصّغارْ
بما تجودُ به المساءاتُ المضيئةُ من
حكايا
كان ينصتُ للسّماءِ
وكان يحكي للتّرابِ
ويقتفي حلمَ الطّيورِ
وكان صخرُ البحرِ دفترَه الوحيدَ
وحبرُه الرّيدَ الشّفيفْ...
حكايةٌ تكفي لتبحرَ في مجازِ الماءِ
أو تشدو وحيداً
في فضاءٍ لا نهائيّ...
هنا عكّا
هنا وطنُ البدايةِ والنّهايةِ
قالها غسّانُ للوجهِ الغريبِ
سنعبرُ الشّوكَ المؤدّيَ نحوَ منفانا
ولكن لن نموتَ
دماؤنا أرقى من الموتِ الرّخيصِ
على ترابِ الغيرِ
لا منفى يغيّرُنا
ولا منفى سيكسرُنا
هنا المنفى...
أرى غسّانَ يُشهرُ حبرَه...
في صدرِه
نبضاتُ من رحلوا
ومَن قُتِلوا
وفي عينيه أرضُ البرتقالِ حزينةً
لا تهجرِ الأوراقَ يا غسّانُ
خضّبها بنزفِكَ
كي يظلّ الدّربُ أوضحَ
في ليالينا الطّويلة
كي تظلّ الشّمسُ تزهو بالرّجالِ
تُرى لماذا يقتلونَ الحُلمَ
هل غابتْ رؤاك عن الوجودِ
وأنت تمضي واثقاً...
ولعلّ من فرحوا بصرخَتِكِ الأخيرةِ
لم يكونوا يعلمونَ
بأنّ هذا العمرَ أقصرُ ما يكونُ لقاتلٍ
وجدَ الرّصاصةَ
حجّةً أقوى بمعركةِ الحوارْ
سيظلُّ حبرُكَ ثورةً
والعاشقونَ لحرفِك الرّاقي همُ الثّوارْ
يا «أمَّ سعدٍ» زغردي
عادَ الشّهيدُ إلى الدّيارِ مكلّلاً بالغارْ
اليومَ لا تبكي عليكِ
بعرسِكِ الأبديّ بل نبكي علينا
كيف لم نقرأ دليلَ الفجرِ بعدْ
وكيفَ اخطأنا مواسمَ الانتظارْ
كم قلتَ لا تشكوا من الأمواجِ
لا... لا تسرفوا بالشّتمِ... شتمِ البحرِ
كونوا واضحينَ لتصرخوا
ما انعسَ البحّارْ
غسّانُ
لا تقلقْ وإن مثّنا قليلاً في تفاصيلِ
الجهاتِ
لعلّنا نصغي إلى أعماقِنا
نَهَبُ الحقيقةَ حقّها
ونقولُ لم ننجحْ هنا...
وهنا اختلفْنا تحتَ سقفٍ واحدٍ
وهنا تأخّرْنا لنتّخذَ القرارْ
لا بأس
إن قُلْنا فشلْنا
ليس يعلو النّسرُ فوق الغيمِ
إلا حينَ ينفضُ عن جناحيه الغبارْ
ماذا تبقّى بعدما هَوَتِ القلاعُ
ولم يعدْ في وقتِنا وقتُ
لنحزنَ من جديدِ
كلُّ ما نحتاجُه كفّاكَ والحبرُ العظيمُ
لنرتقيَ فوقَ الحصارْ
طالَ الظّلامُ
ونحنُ صمتُ دروبِنا
حرّضْ خطانا للذّهابِ إلى النّهارْ
سيمرُّ عامٌ
بعد عامٍ
بعد عامٍ...
كلّما اشتقْنا إليكَ
وكلّما هتفَ التّرابُ
تراكَ تسبقُنا لعكّا
حاملاً بيديكَ بيرقَ الانتصارْ

(*) شاعر فلسطيني.

ذكرى 51 عاماً على استشهاد المناضل الرمز

رؤية حيّة لا تقطع الأدب والسياسة عن الواقع

عن الكنفانية وتحرير الثقافة

مروان عبد العال *

«نكتشف، أولاً ودائماً، أنه في عمق وعيه، كان يدرك أن الثقافة أصل من عدة أصول للسياسة، وأنه ما من مشروع سياسي دون مشروع ثقافي» (محمود درويش)

كنت قد كتبت مقالاً العام الفائت في ذكرى غسان كنفاني بعنوان «الكنفانية والجبهة الشعبية» نُشر في مدونة «مؤسسة الدراسات الفلسطينية». كان المقال عبارة عن استعادة الكنفانية من مدخل «الجبهة الشعبية» لمعرفة أوجه الصراع الفكري وتأثيره في البُنى التأسيسية التي أحدثت دوراً مغايراً في المجالين الحزبي والوطني، خصوصاً في زمن الهدايات والانفعالات والانشقاقات والتصدّعات والتحولات التي تحدث عقب اشتداد الأزمات، والفشل في السيطرة على الأسئلة، فكان عبارة عن محاولة لتبيان الصراع التنظيمي بين عقليتين ونموذجين متعارضين جذرياً، سيما أنّ النخب السياسية تستخدم الهوية التنظيمية، أو ما نسمّيه «التعصّب» في سبيل نصرة مصلحة ذاتية ضيقة على حساب الجماهير والمصلحة العامة، وأظهرتْ تحذير غسان كنفاني من خطورة «المزايدة» و«المناقصة» كما كان يسمّيها، وتحويل التنظيم من وسيلة للنضال إلى هدف، واستبدال الهوية الوطنية بالهوية التنظيمية. عندما نتناول عنواناً مكمّلاً حول الكنفانية والمسألة الثقافية، ودورها في تحرير الثقافة أو تحرير العقل، إنما هي محاولة لإلقاء الضوء على فلسفته التي هي وثيقة ميلاده الحقيقية وسجلّ خلوده في نقطة التقاطع الفردي والجماعي والثقافي والسياسي، فلسفة تحرير الثقافة من شكل آخر من الاحتلال، تحريرها من احتلال التبعية والتفاهة والتحجّر والتسطيح وسرقة الثقافة التي هي جوهر كل عملية استعمارية، والاحتلال الصهيوني لا يقوم باحتلال الأرض فقط، إنما بالسطو على الثقافة أيضاً.

فلسطيني مطارد في الامكنة والأزمنة

هكذا نراه مبشّراً بالثورة ومثقفاً استثنائياً وبعين العدو كذلك، حيث يقول في كتاب أعدّه داني روبنشتاين: «لا شك في أنّ كنفاني من الناحية الثورية الأدبية كان روائياً قوياً ومبشّراً بالثورة الفلسطينية. إنّه استثنائي». هذا المثقف الاستثنائي مثّله غسان كنفاني صاحب التجربة التي «لم تكتمل» بل أغتيل كي لا يكتمل. كان يكتب ويناضل ويرسم ويحرر مجلة وهو في حالة جريان، فيلسوف فلسطيني مطارد في الأمكنة والأزمنة، حتى إنّ هناك روايات وأعمالاً ودراسات «المثقّف» الجديد حول الفصاحة والإثارة السطحية والآنية للمشاعر والأهواء. بل صار لزاماً عليه أن يشارك مباشرةً في الحياة العملية كيان ومنظّم مقنع دائماً». لذلك في تقديمه لأعمال غسان كنفاني الأدبية الكاملة، أشار محمود درويش إلى معضلة حرف العطف، فقلوه «الواو»، الذي يفصل بين مفردتَي «الكاتب» و«المناضل» في تعريف كنفاني كمثقف مناضل أو المناضل المثقف، لأنه أبدع في منح السياسة بعداً ثقافياً جديداً ومغايراً، في القدرة على صياغة المفهوم الأعمق والأدق للعمل السياسي. لم يكن مجرد «المثقف» المنتج الذي لا يعتمد على البلاغة، كمحرك خارجي موفّت للمشاعر والعواطف، بل يعتمد على المشاركة الإيجابية في الحياة العملية كيان ومنظّم لها. ومن هذا التصور للمثقف العضوي يخاطب غرامشي المثقفين بدعوتهم إلى الالتزام السياسي، فيقول: «لم يعد بالإمكان أن يتمحور نسق حياة «المثقف» الجديد حول الفصاحة والإثارة السطحية والآنية للمشاعر والأهواء. بل صار لزاماً عليه أن يشارك مباشرةً في الحياة العملية كيان ومنظّم مقنع دائماً». لذلك في تقديمه لأعمال غسان كنفاني الأدبية الكاملة، أشار محمود درويش إلى معضلة حرف العطف، فقلوه «الواو»، الذي يفصل بين مفردتَي «الكاتب» و«المناضل» في تعريف كنفاني كمثقف مناضل أو المناضل المثقف، لأنه أبدع في منح السياسة بعداً ثقافياً جديداً ومغايراً، في القدرة على صياغة المفهوم الأعمق والأدق للعمل السياسي. لم يكن مجرد «المثقف» المنتج الذي لا يعتمد على البلاغة، كمحرك خارجي موفّت للمشاعر والعواطف، بل يعتمد على المشاركة الإيجابية في الحياة العملية كيان ومنظّم لها. ومن هذا التصور للمثقف العضوي يخاطب غرامشي المثقفين بدعوتهم إلى الالتزام السياسي، فيقول: «لم يعد بالإمكان أن يتمحور نسق حياة «المثقّف» الجديد حول الفصاحة والإثارة السطحية والآنية للمشاعر والأهواء. بل صار لزاماً عليه أن يشارك مباشرةً في الحياة العملية كيان ومنظّم مقنع دائماً». لذلك في تقديمه لأعمال غسان كنفاني الأدبية الكاملة، أشار محمود درويش إلى معضلة حرف العطف، فقلوه «الواو»، الذي يفصل بين مفردتَي «الكاتب» و«المناضل» في تعريف كنفاني كمثقف مناضل أو المناضل المثقف، لأنه أبدع في منح السياسة بعداً ثقافياً جديداً ومغايراً، في القدرة على صياغة المفهوم الأعمق والأدق للعمل السياسي. لم يكن مجرد «المثقف» المنتج الذي لا يعتمد على البلاغة، كمحرك خارجي موفّت للمشاعر والعواطف، بل يعتمد على المشاركة الإيجابية في الحياة العملية كيان ومنظّم لها. ومن هذا التصور للمثقف العضوي يخاطب غرامشي المثقفين بدعوتهم إلى الالتزام السياسي، فيقول: «لم يعد بالإمكان أن يتمحور نسق حياة «المثقّف» الجديد حول الفصاحة والإثارة السطحية والآنية للمشاعر والأهواء. بل صار لزاماً عليه أن يشارك مباشرةً في الحياة العملية كيان ومنظّم مقنع دائماً». لذلك في تقديمه لأعمال غسان كنفاني الأدبية الكاملة، أشار محمود درويش

بوستر غسان كنفاني (2000) بتصميم عدنان الزيدي (1951 ــ 2007) palestineposterproject.org

بشرة سوداء وأقنعة بيضاء

غسان طرح الأسئلة المبكرة من زاوية المثقف الطوباوي، بل من زاوية مثقف الثورة، المثقف المقاتل، كما حلّل فرانز فانون الجذر الثقافي للعلاقة بين الاستعمار والشعوب الواقعة تحت الاستعمار، وتلك الصراعات المدفونة في الذاكرة. في النهاية، يؤكّد «أن الاستعمار الثقافي لا يقل فتكاً عن الاستعمار التقليدي، وأنّ التحرر الثقافي لن يكون يوماً دون انعتاق المستعمر نفسياً من التبعية والشعور بالدونية للمستعمر»، كأنما نظريته تتحدث عن واقعنا العربي، لكن مشاعر الثقافة الأدنى والأعلى، «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء»، العقدة بين وكيل للمستعمر يمارس دور الاستعمار، وفقدان الندية الثقافية للغرب... بين هذا الشكل الكلاسيكي للإمبريالية وبين تفكك النظام الاستعماري القديم، وولادة طور جديد من الإمبريالية، أصدر كتابه «معذبو الأرض» الذي شكّل «المانفيستو الثقافي الأفريقي» وأوضح سياقات الاستعمار والرأسمالية التي تطور نفسها وتجدد أدواتها كما تبدل منتجاتها وسوقها وأنظمتها وكذلك حيلها وعملياتها وسماسرتها ومثقفيها ومروّجيها في الخارج والداخل. لذلك، يخلق عالماً ثنائياً متناقضاً لا مصالحة بينهما. الحل بإزالة الاستعمار، والمثقفون الذين يتبنون العنف الثوري لفظياً، يشكلون طبقة معبقة، وتكون الأمة الثورية المتزامنة مع حرب العصابات ضد الاستعمار، وتصحيح الوعي الثقافي التحرري، ويدرك عندها المحتل إما أن يرحل أو يفنى لغير رجعة. هكذا يكون إشعال الثورات من الأسفل منعاً للتلاعب بها من النخب.

صاحب مصطلح «ادب المقاومة»

في مراجعته الجريئة للثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936 ضمن دراسته الشاملة لها، يفرد غسان قسماً عن الصراع الثقافي من خلال دور المثقف الثوري غير المنفصل عن التراث الثقافي للجماهير: «كان الصراع الثقافي بين الدعاة الثوريين والرجعيين في الريف، وبين الدعاة الثوريين والعدميين والرومنطيقيين في المدينة، يكسب كل يوم لمصلحة الثقافة الثورية. الهبت هذه الثورة طليعة من شعراء النضال المسلح وجعلوه جزءاً من التراث الثقافي للجماهير، بالإضافة الى الدور اللافت الذي لعبته الصحف والمقالات الأدبية والقصص وحركة الترجمة. تلك الانطلاقات هي التي شكّلت المد الثقافي الثوري في الثلاثينيات، وعملت على تنمية الوعي وكانت سبباً في تفجير الثورة».

يعرف غسان أنّه صاحب براءة اختراع مصطلح «أدب المقاومة» استخدمه أول مرة في العالم، إذ ذكره للمرة الأولى في مقال له نشره عام 1966، ودافع عن مفهوم أدب المقاومة في أعماله كلها. كما أنجز دراسات لا تقل أهمية عن رواياته، ومجموعاته القصصية أبرزها كتاب «في الأدب الصهيوني»، و«أدب المقاومة في فلسطين المحتلة» عام 1966، و«الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال» عام 1968. قد يكون الشكل متشابهاً كما يقول غسان بين روائيين يستخدمان الموضوع التاريخي ذاته، لكن معادلة حق القوة وقوة الحق، ستظل رهناً لإجابة على سؤال كيفية الاستدلال على النص الحقيقي والنص المزيّف. لماذا يميل الصراع باتجاه هذه الجهة دون غيرها؟ ولماذا تنجح رواية أحدهما فيما تفشل الأخرى؟ لا بد من العودة الى الخلفية الفكرية، قوة ووعي وثورية الثقافة، العقل الذي يقف خلف الأدب، فهو ليس مجرد لغو، إنما هو خزانة قيم الأمة وتاريخها وتراثها. لذا يعتبر بعض النقاد أن الرواية التاريخية هي رواية إيديولوجيا؛ يعني أن الروائي قد يتدخل في نصه، من خلال شخوصه ومواقفهم، إلى درجة يسقط فيها معاطف إيديولوجية ثقيلة، قد تبدو أكبر مقاساً من أجسادهم العادية، وبساطتها، فكيف يمكن لجم انفلات الإيديولوجيا كي لا تعيث بالنص خراباً، وتحمي النص الروائي من انتهاكه إيديولوجياً؟ هنا تكمن قوة السردية، لمانفيستو ثقافي أعلنت عنه حكاياته وكتاباته وأبطاله، تنتج ذاتها يومياً في سرديّات البطولة في كل فلسطين.

في مدرسة الشعب

لذا، هو يفرق بين الإيديولوجيا المقفلة والإيديولوجيا كرؤية ثقافية شاملة للحياة وللمعتقدات وللخبرات الإنسانية

> مخيم جنين وكتيبة المقاومة التي تولد من تحت الركام، مثل دالية أم سعد، دالية العنب

ولبناء المجتمعات عن طريق إعادة تعريف هذا المفهوم من جديد، فالمسألة لا تتوقف عند أولئك المثقفين الذين حصلوا على تعليم عالٍ وتخصصوا في العلم، بل لا يمكن للشهادات العلمية المجردة أن تجعل حاملها مثقفاً بالضرورة، كما أسماه مالك بن نبي. لكنه يشمل الذين انخرطوا بالممارسة الثقافية والاجتماعية النقدية وبوصفهم طليعة سياسية أو قوة تقدمية تحررية.

وكما قال عن أم سعد في إهدائه «أم سعد الشعب والمدرسة»، نبوءة غسان التي مجّدت المخيم والمرأة الفلسطينية عنوان الكدح والثورة والتضحية ورمزية الخيمة، أم سعد العظيمة «خيمة عن خيمة تفرق»، استشرف الوعي العظيم، للأم الفلسطينية، عندما شاهد أم سعد في مخيم برج البراجنة صارت تتزين بطلقة فارغة كحلية، حول رقبتها، بدل الحجاب «الحرز» الذي يحرسها من الشرور. ها هي تتجسد اليوم بأمهات أبطال عرين الأسود، مثل أم إبراهيم النابلسي التي تحمل نعش ابنها وتزغرد وتحمل بندقيته، وبالفرق بين خيام اللاجئ وخيام الثورة، خيام الجحيم وخيام الخلاص، خيام المنفى والغربة القريبة والبعيدة، والحبوس وخيمة الفدائي؛ مخيم جنين وكتيبة المقاومة التي تولد من تحت الركام، مثل دالية أم سعد، دالية العنب، رمز «التجدد الثوري». وكيف ننتصر على الهزيمة؟ من خلال الغصن الخشبي اليابس الذي غرسته في أرض مناسبة خصبة وتربة صحيحة، لينمو من جديد ويعربش إلى الأعلى وليبرعم ويثمر عنباً.

وفي «رجال في الشمس»، ما زالت صرخته المدوية تصم الآذن «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟» وعليهم أن يرفضوا الموت كبضاعة مهرّبة في صهاريج أو قوارب الموت أو العيش في غيتوات ومخيمات وحياة الذل وغارقة داخل حصار أو بداء العنصرية. كل ما أبدعه كمثقف ينتمي إلى الثورة، أحدث انقلاباً ثقافياً في الدلالة، وثورة في التغيير والحرية، وسردية مشبعة بخيالها واتزانها وارتباطها بالواقع وفي ربطها بين الشخصي والعام والإنساني والوجودي، ليصبح تحرير الثقافة من «المثقف الكمبرادور»، و«مثقف النص كُم» كما وصفه، المثقف التابع والملحق بالغرب، والمساند للإمبريالية الأميركية، مثقف «الحياد» بين المجرم والضحية، بين ابن الأرض الشرعي ومغتصبيه... لا حياد أبداً بين الحقيقة والخديعة وبين الحق والباطل.

تحرير الثقافة يعني أن يصبح الأدب قادراً على طرح أسئلة كبيرة وعميقة، ففي قصته القصيرة «زمن الاشتباك» يميز، على لسان سارده، بين زمن الاشتباك وزمن الحرب. يقول إنّه في زمن الحرب، ثمة هدنة يلتقط خلالها المحارب أنفاسه، وليس الأمر كذلك في زمن الاشتباك، ففي هذا لا يجد المشتبك مع الحياة فرصةً لالتقاط أنفاسه. ظل مشتبكاً مع الحياة، وربما مع نصوصه ودراساته وأبطاله ومع الأفكار والنظريات، لأنه وجد فلسطين بحد ذاتها سؤالاً ثقافياً، تستحق كل أشكال الاشتباك والنقد والسؤال. وكي نستعيد غسان كنفاني الذي «كتب بدمه لفلسطين» يعني أن نستعيد مشروعه الثقافي النقدي ليكون أداةً فارقة في إنتاج الأدب والفن والفكر، مشروعاً قادماً من الحياة بكل أوجاعها... المخاض الذي بناه غسان بتجربة إنسانية ملحمية، وثقافة حيّة لا تقطع الأدب والسياسة عن الواقع، أو عن التاريخ، تحمي رواية الأصيل من زيف رواية الدخيل.

من أجل ذلك، هل نحن في حاجة إلى مانفيستو ثقافي؟ أو عقد تاريخي يحرر الثقافة؟ ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أننا بتنا أكثر حاجة إلى الجبهة الثقافية التي لا تقل أهمية عن المقاومة المسلحة، من أجل حماية الذات والفكر والهوية.

* روائي فلسطيني ومسؤول «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» في لبنان

أدب مسكون بالفدائيين والثوّار

كانت فلسطين موضوع حياة غسان كنفاني، وموضوع كتاباته، وموضوع رواياته، ومقالاته ومسرحياته ومقالاته القصيرة، بل كانت أيضاً موضوع حياته وموضوع موته: منذ المجموعة القصصية الأولى «القميص المسروق» التي نُشرت أول مرّة في الكويت عام 1958، وحازت الجائزة الأولى في مسابقة أدبية، كان غسان كنفاني يعيش قضيته حتى الشهادة. صدّر الأديب الملتزم مجموعته الثانية «موت سرير رقم 12»، التي أصدرها في بيروت عام 1961 بمقدمة قصيرة جاء فيها: «أنا أؤمن أن الكتاب يجب أن يقدّم نفسه، وإذا عجز عن إحراز جزء من طموح كاتبه، فعلى الكاتب أن يقبل ذلك ببساطة، كما قبل مرات ومرات-أن يمزق قصصاً ليعيد كتابتها. وهكذا فـ «موت سرير رقم 12» أدفعها لتشقّ طريقها، إن استطاعت أن تهتدي إلى أول الطريق بنفسها، دون شفاعة ودون وساطة ودون جواز مرور». حملت هذه المجموعة الاتجاهات الأساسية التي حاولت تجربة كنفاني الإبداعية اكتشافها وبلورتها، ومهّدت لـ «رجال في الشمس»، أعظم أعماله على الإطلاق، التي كانت بمثابة الصراخ الشرعي المفقود، والصوت الفلسطيني الذي ضاع طويلاً في خيام التشرّد، واختنق داخل عربة يقودها مخصيّ هزم مرة أولى وسيقود الجميع إلى الموت. موت حدد كنفاني ضرورة الخروج منه باكتشاف الفعل التاريخي أو البحث عن هذا الفعل التاريخي، انطلاقاً من طرح السؤال البديهي: «لماذا لم يدقّوا جدران الخزّان؟».

في «عالم ليس لنا» (1965)، بدأت رحلة البحث عن المفتاح الضائع، إذ إن البطل الذي هو «مثل إنسان ضيّع شيئاً، كان يسير محنيّاً بعض الشيء، بكفّين مفتوحتين متحفّزتين، وعينين تنقّبان وجوه الناس كأنّهما محراثان عتيقان. لقد بدا للوهلة الأولى كأنه مجنون»، هذا الرجل هو صورة الفلسطيني الذي بدا كأنه وجد عروسه في عام 1965، ولم تكن العروس سوى هذا البحث المتواصل عن البندقية، من بعدها، بدأ كنفاني في استكشاف العدو من خلال دراسة «في الأدب الصهيوني» (1967) يقابلها استكشاف «الأدب الفلسطيني تحت الاحتلال» (1968)، ليصل إلى رائعته «أم سعد» (1969) التي قدّم من خلالها الأم الفلسطينية التي تحفظ التراث الفلسطيني وتستنهض أبناءها في المخيم لتحويلهم من لاجئين إلى فدائيين وثوار، وليعلن انحيازه الطبقي والفكري للجماهير، للمرأة التي تشبه الأم في رواية غوركي التي تقبض على التاريخ وتسمع لمن سُرقت منهم اللغة باستعادتها واستكشاف احتمالات التحول في الوعي السياسي والاجتماعي. في «عائد إلى حيفا» (1969)، نقل غسان كنفاني المعركة من الشتات إلى الداخل المحتلّ، إذ رسم فيها الوعي الجديد الذي بدأ يتبلور بعد هزيمة عام 1967، فكانت بمثابة محاكمة للذات من خلال إعادة النظر في مفهوم الذات ومفهوم الوطن، ليعلن البطل العائد إلى مدينته التي ترك فيها طفله أنّ « الإنسان هو القضية، وأن فلسطين ليست استعادة للذكريات بل هي صناعة للمستقبل». رغم كثرة أعماله الأخرى مثل «العاشق» (رواية لم تكتمل بدأ بكتابتها عام 1966) و«برقوق نيسان» (1971-1972) ومسرحيات مثل «جسر إلى الأبد» (1965) و«القبعة والنبي» (1967) وغيرها من الدراسات الأدبية والنقدية التي كتبت تحت اسم مستعار (فارس فارس) وترجمة «صيف ودخان» للكاتب الأميركي تينيسي ويليامز (1964)، «لم يكرر غسان كنفاني نفسه في مخيم برج البراجنة صارت تتزين بطلقة فارغة كحلية، حول رقبتها، بدل الحجاب «الحرز» الذي يحرسها من الشرور. ها هي تتجسد اليوم بأمهات أبطال عرين الأسود، مثل أم إبراهيم النابلسي التي تحمل نعش ابنها وتزغرد وتحمل بندقيته، وبالفرق بين خيام اللاجئ وخيام الثورة، خيام الجحيم وخيام الخلاص، خيام المنفى والغربة القريبة والبعيدة، والحبوس وخيمة الفدائي؛ مخيم جنين وكتيبة المقاومة التي تولد من تحت الركام، مثل دالية أم سعد، دالية العنب، رمز «التجدد الثوري». وكيف ننتصر على الهزيمة؟ من خلال الغصن الخشبي اليابس الذي غرسته في أرض مناسبة خصبة وتربة صحيحة، لينمو من جديد ويعربش إلى الأعلى وليبرعم ويثمر عنباً.

وفي «رجال في الشمس»، ما زالت صرخته المدوية تصم الآذن «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟» وعليهم أن يرفضوا الموت كبضاعة مهرّبة في صهاريج أو قوارب الموت أو العيش في غيتوات ومخيمات وحياة الذل وغارقة داخل حصار أو بداء العنصرية. كل ما أبدعه كمثقف ينتمي إلى الثورة، أحدث انقلاباً ثقافياً في الدلالة، وثورة في التغيير والحرية، وسردية مشبعة بخيالها واتزانها وارتباطها بالواقع وفي ربطها بين الشخصي والعام والإنساني والوجودي، ليصبح تحرير الثقافة من «المثقف الكمبرادور»، و«مثقف النص كُم» كما وصفه، المثقف التابع والملحق بالغرب، والمساند للإمبريالية الأميركية، مثقف «الحياد» بين المجرم والضحية، بين ابن الأرض الشرعي ومغتصبيه... لا حياد أبداً بين الحقيقة والخديعة وبين الحق والباطل.

تحرير الثقافة يعني أن يصبح الأدب قادراً على طرح أسئلة كبيرة وعميقة، ففي قصته القصيرة «زمن الاشتباك» يميز، على لسان سارده، بين زمن الاشتباك وزمن الحرب. يقول إنّه في زمن الحرب، ثمة هدنة يلتقط خلالها المحارب أنفاسه، وليس الأمر كذلك في زمن الاشتباك، ففي هذا لا يجد المشتبك مع الحياة فرصةً لالتقاط أنفاسه. ظل مشتبكاً مع الحياة، وربما مع نصوصه ودراساته وأبطاله ومع الأفكار والنظريات، لأنه وجد فلسطين بحد ذاتها سؤالاً ثقافياً، تستحق كل أشكال الاشتباك والنقد والسؤال. وكي نستعيد غسان كنفاني الذي «كتب بدمه لفلسطين» يعني أن نستعيد مشروعه الثقافي النقدي ليكون أداةً فارقة في إنتاج الأدب والفن والفكر، مشروعاً قادماً من الحياة بكل أوجاعها... المخاض الذي بناه غسان بتجربة إنسانية ملحمية، وثقافة حيّة لا تقطع الأدب والسياسة عن الواقع، أو عن التاريخ، تحمي رواية الأصيل من زيف رواية الدخيل.

من أجل ذلك، هل نحن في حاجة إلى مانفيستو ثقافي؟ أو عقد تاريخي يحرر الثقافة؟ ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أننا بتنا أكثر حاجة إلى الجبهة الثقافية التي لا تقل أهمية عن المقاومة المسلحة، من أجل حماية الذات والفكر والهوية.

* روائي فلسطيني ومسؤول «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» في لبنان

انتشل فلسطين من بكائيات اللجوء والتفجع

محمد ناصر الدين

كان غسان كنفاني (1936-1972) الابن الثالث لوالده المحامي الذي التحق بمعهد الحقوق في القدس وتخرّج محامياً برع في مرافعاته في القضايا الوطنية، وخصوصاً أثناء ثورات فلسطين واعتقل مراراً بإيعاز من الوكالة اليهودية بعد انتقال الأسرة للعمل والعيش في يافا. التحق اليافع غسان بمدرسة «الفرير» الفرنسية المرموقة في يافا. إلا أن دراسته الابتدائية فيها لم تستمر سوى بضع سنين، إذ إن أسرته كانت تعيش في حي المنشية الملاصق لتلّ الربيع في يافا التي ستتحول في ما بعد إلى تل أبيب. وسيشهد محيط السكن والدراسة أولى المناوشات بين العرب واليهود على إثر قرار تقسيم فلسطين. ما اضطر الأسرة إلى العودة أدراجها إلى عكّا حتى نيسان (أبريل) 1948، حين سقطت المدينة بيد العصابات اليهودية بينما أصداء مجازر كفرقاسم ودير ياسين والطنطورية تتردد بقوة في صفوف شعب كامل حملته النكبة على النزوح والتشرّد.

غادر صاحب «رجال في الشمس» إلى لبنان حيث أقام لفترة قصيرة في بلدة الغازية الجنوبية قرب صيدا، ومنها بالقطار إلى دمشق، حيث بدأ أمارات النبوغ تبدو على ملامح الفتى، فبرز تفوقه أثناء دراسته الثانوية في الرسم والموسيقى، كما عمل في تصحيح البروفات في بعض الصحف، وأحياناً في التحرير، ناهيك بمشاركات في برنامج «فلسطين» على أثير الإذاعة السورية. عمل بعد انتهاء الدراسة في التدريس في مدرسة «الاليانس» التي غدت محجّة لطلّاب أسر اللاجئين الفلسطينيين، ثم التحق بجامعة دمشق لدراسة الأدب العربي وأوكلت إليه في حينها مهمة تنظيم جناح فلسطين في «معرض دمشق الدولي للكتاب»، قبل أن يفصل منها لأسباب سياسية. سافر غسان من بعدها إلى الكويت حيث مكث ستّ سنوات كانت كافية لصقل شخصية الأديب الصلب قراءةً وكتابةً. ليكتب باكورة قصصه «القميص المسروق» وينال عليها جائزة تقديرية في مسابقة أدبية. تشكّل الوعي السياسي باكراً لدى صاحب «أم سعد»، إذ سحرته شخصية جورج حبش الذي التقى به للمرة الأولى عام 1953، ليلتسب إلى «حركة القوميين العرب» التي كان حبش أحد مؤسسيها، ويُطلب منه عام 1960 مغادرة الكويت إلى بيروت للعمل في جريدة «الحرية»، ثم شرع في كتابة مقال أسبوعي لجريدة «المحرر» البيروتية. انتسب كنفاني إلى «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، وهي الفرع الفلسطيني لـ «حركة القوميين العرب عام 1967، وتولّى تحرير صحيفة «الهدف» من عام 1969 حتى استشهاده عام 1972 بعملية للكوماندوس الإسرائيلي في بيروت، مع ابنة شقيقته الصغيرة ليس. الحالم بعودة فلسطين كاملة من دون نقصان، ورث عن والدته مرض السكري. كما أنّ نمط حياته المنذورة بالكامل للقضية والكتابة على مختلف أنواعها بين الرواية والقصص القصيرة والمسرحيات والدراسات المقارنة أدّت إلى إصابته بمرض النقرس الذي يفتك بالمفاصل ويسبب لصاحبه آلاماً مبرحة، إضافة إلى قصور حاد في عمل الكلى والأجهزة الدموية. تعرّف غسان إلى زوجته آني في مؤتمر طلابي عقد في يوغسلافيا عام 1961، لتتطور علاقة الحب مع الصبية الدنماركية المتحمّسة للقضية الفلسطينية إلى زواج رزقا فيه بولدين: فايز وليلى. الكاتب الذي كان يرى في فلسطين رمزاً كاملاً للإنسانية، وكان رائداً في تأسيس عمل ثقافي جدّي يكون بمثابة رافعة للعمل السياسي، كرّس نفسه بحق كمؤسس للأدب الفلسطيني المقاوم بعد النكبة، كما وضع الأدب الفلسطيني في مصافّ الأدب العالمي. إذ قورنت روايته «ما تبقى لكم» برواية «الصخب والعنف» لفولكنر، وتحول أدبه إلى منارة لكل الحالمين بـ«أرض البرتقال الحزين»، وانتشال فلسطين من بكائيات اللجوء والتفجع على الوطن المفقود وبعثها باحثةً عن التحرير والكرامة. حين سقط غسّان مضرّجاً بدمه، رثاه الشاعر محمود درويش، الذي أكمل لوحة فلسطين الأدبية في جناحها الشعري بكلمات تشير إلى المدى الذي سيبلغه أدب كنفاني وقدرته الريادية على فتح أفق المواجهة الحضارية مع العدو: «لن نلتقي به بعد. لن نسمع مزيداً من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون إلى الكتابة بفضيلة القضية. ولكنه يقتحمنا دائماً بقوة كلماته التي لا تموت. كم كتب الفلسطينيون وماتوا! لكن حبرهم كان يجفّ مع دمهم. كتاباته قد تكون هي النادرة التي تصلح للقراءة بعد العودة من جنازة كاتبها. وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدأ من غسان كنفاني».

المراجع: «غسان كنفاني، القائد والمفكّر السياسي» ـ بسام أبو شريف (دار رياض الريس للكتب والنشر، 2015)

يوم حافل بالأنشطة والعروض

البداية... إكليك على ضريح الشهيد

أعلنت «أكاديمية دار الثقافة» عن إقامة «أيام ثقافية لإحياء الذكرى الواحدة والخمسين لاغتيال الناضل والكاتب غسان كنفاني». تتوزّع فاعليات الحدث على مختلف المناطق اللبنانية وخارجها، وتبدأ من وضع إكليل على ضريح الشهيد في «مقبرة الشهداء» في بيروت اليوم السبت عند الساعة العاشرة صباحاً. وستُقام ندوة ثقافية بدعوة من المكتب الإعلامي لـ «الجبهة الشعبية» يتحدث فيها الكاتب اللبناني نصري الصايغ، ونائب أمين عامّ «الحزب الديمقراطيّ الشعبيّ في لبنان» محمد حشيشو، ومسؤول «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في لبنان» الكاتب مروان عبد العال في قاعة «جريدة السفير» في بيروت. وأخيراً، تقدم «أيام غسان كنفاني المسرحية» عرض «العهد» لفرقة «الفينيق» التي تعدّ أحد أجنحة «أكاديمية دار الثقافة». العمل مونودراما عن رواية «حارة النصارى» للكاتب الفلسطيني نبيل خوري الذي يحكي فيها قصة الشهيد يوسف راشد الذي استشهد في عام 1967. عروض المسرحية تتوزّع على بيروت (مسرح المدينة ـ 17/7) ومدينة صور (مركز باسل الأسد الثقافي 7/17)، ومدينة صيدا (مركز معروف سعد الثقافي 7/19)، وطرابلس (مخيم نهر البارد ـ «مسرح كنعان» 7/21). علماً أنّ جميع العروض تبدأ الساعة 7:30 وتُفتتح بكلمة للأكاديمية.

مذكرات

شرلوك هولمز في قاهرة سعد زغلول

صلاح حسن رشيد

تكمن أهمية «قارئ الجثث: مذكرات طبيب تشريح بريطاني في مصر الملكية» (الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ـ 2023) في أنه يقدّم صورة مصر الجنائية في العقد الثاني وقريب من الثالث من القرن العشرين، إلى جانب المناخ السياسي والاجتماعي الذي كان سائداً في تلك المرحلة المفصلية في التاريخ المصري الحديث. الكتاب هو مذكرات الطبيب الشرعي الإنكليزي الشهير سيدني سميث (1884 ـ 1969) الذي يعدّ مؤسّس مصلحة الطب الشرعي في مصر عام 1927، حيث مكث راصداً ودارساً وكاشفاً أحوالها الصحية والأمنية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية منذ عام 1917 حتى عام 1927، فأطلق على مذكراته عنوان «على الأرجح .. قُتِل». صدرت هذه المذكرات في لندن عام 1959؛ فتجاهلها المصريون بسبب التركة الثقيلة الحُبلى بالمآسي والجرائم والمصائب التي ارتكبها الاحتلال البريطاني بحقّ مصر طوال اثنين وسبعين عاماً؛ ولعدم وثوقهم بالتكنوقراط من الإنكليز. ظلّ سيدني سميث متّهماً لمدة 64 عاماً إلى أن برّأه الصحافي المصري مصطفى عبيد عندما ترجم أخيراً مذكّراته إلى اللغة العربية مع تغيير العنوان، ليصبح «قارئ الجثث: مذكرات طبيب تشريح بريطاني في مصر الملكية».

أثار سميث إعجاب الناس وأجهزة الشرطة والأمن عندما اهتدى إلى مرتكبي سلسلة من الجرائم العويصة الصعبة في برّ مصر وصعيدها، تلك التي كان يتم حفظُها في ما مضى لعدم كفاية الأدلة. أمّا سيدني سميث؛ فقد كان له رأيٌ آخر، إذ أعاد للأذهان شخصية محقّق الجرائم الأشهر شارلوك هولمز التي رسم أبعادها الكاتب آرثر كونان دويل؛ فكأنه يقرأ أفكار القتلة بمجرد ارتكابهم جرائمهم، أو يشمّ روائحهم الشقيقتين الشهيرتين ريّا وسكينة في الإسكندرية في عشرينيات القرن الماضي؛ بهدف استدراجهن إلى سرقة مصوغاتهن الذهبية وقتلهن؛ فتوصّل إلى تحديد شخصياتهن بالاسم برغم مرور أشهر عدة على ذلك. كما أنه تناول في مذكراته عملية تشريح جثة سردار الجيش الإنكليزي في مصر وحاكم السودان السير لي ستاك في 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 1924 نتيجة قيام مجموعة من الفدائيين المصريين بتصفيته وإصابة اثنين من حرّاسه، وما صاحب ذلك من عمليات ملاحقة ودهم واعتقال وتشريد للمناوئين للاحتلال البريطاني.

كشف جثامين ضحايا ريّا وسكينة في الإسكندرية

أشارت المذكرات كذلك إلى قضايا التسميم بالزرنيخ الشائعة وقتذاك، وإلى عمليات الخنق، وتشويه الأعضاء، وتقطيعها إلى أجزاء متناثرة، وإلى كشف غموض مرتكبي الجريمة البشعة بحق الحسناء الرومانية إيما في القاهرة، وإلى علاقة كل ذلك بسوء الأحوال الاقتصادية، وشيوع الجهل والأمراض والفاقة بين الناس في القرى والنجوع، حتى استبشرت بقدومه صحافة مصر؛ فقالت: «ليس غيره، إنه سيدني سميث رمز العدالة الذي وأد الجريمة في عموم وادي النيل، وكشف أعتى القتلة المأجورين».

أثار سميث إعجاب الناس وأجهزة الشرطة والأمن عندما اهتدى إلى مرتكبي سلسلة من الجرائم العويصة الصعبة في برّ مصر وصعيدها، تلك التي كان يتم حفظُها في ما مضى لعدم كفايةِ الأدلة. أمّا سيدني سميث؛ فقد كان له رأيٌ آخر، إذ أعاد للأذهان شخصية محقّق الجرائم الأشهر شارلوك هولمز التي رسم أبعادها الكاتب آرثر كونان دويل؛ فكأنه يقرأ أفكار القتلة بمجرد ارتكابهم جرائمهم، أو يشمّ روائحهم على بعد، أو يرى الجريمة ماثلةً في وجوههم؛ فيُلقي بهم وراء القضبان!

الجديد الذي أظهرته المذكرات هو تعاطف سيدني الشديد مع المصريين في مطالبهم الحثيثة للاستقلال عن الاحتلال البريطاني؛ فقد أيّد ثورة 1919، ودعا في لندن إلى إعطاء مصر حكماً ذاتياً جمهورياً على غرار نيوزيلندا، وإلى اختيار سعد زغلول رئيساً... ما تسبّب له في الإحراج والسخرية من كبار الساسة الإنكليز، حتى صاحوا في وجهه على الملأ: «أفقْ سيدني؛ فقد أفرطتْ في الشراب»! كما لم يُظهر أي عنصرية أو استهزاء بعادات المصريين وتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية كغيره من الأنغلوساكسون الإمبرياليين، وإنما كان بسيطاً يتقرّب إليهم، ويعقد الصداقات مع فقرائهم، ويُطلق القفشات والنكات المقبولة معهم؛ فبيث بينهم جوّاً من المرح والمودة.

يشير في كتابه إلى أن مسرح الجرائم النادرة الخطيرة والكثيرة في مصر، وتعددها وتنوّعها، وتعقّدها ساعده في الإفادة القصوى، وألهمه القدرة الفائقة على تفكيك الصعاب حتى صار خبيراً عالمياً في فك خيوط الجريمة أيّاً كانت؛ فاستقدمته أستراليا، وأيرلندا، واستكلندا، وسيلان وحتى بريطانيا؛ للإيقاع بالمجرمين على أراضيها، وهو ما نجح فيه باقتدار ومهارة. ومن الإنصاف البالغ، أنْ نُحني له بتحية واجبة عندما وجدناه ينحاز بضميره المهني ووازعه الأخلاقي إلى الحقيقة المجردة، ولو كانت ضد مصلحة بلاده؛ فاعترف بشجاعة في مذكراته قائلاً: «إن سلطات الاحتلال أخرجت القتلة والسفّاحين من السجون للعمل معهم مخبرين سريين وخُفراء غير نظاميين أثناء تظاهرات ثورة 1919 وغيرها؛ للإمساك بالمعارضين والثوّار أو لإطلاق النار عليهم عند المواجهات»! ووجه سيدني أصابع الاتهام مباشرةً إلى قوات الاحتلال البريطاني بعدما أجرى كشفه الطبي على أحد المعتقلين المصريين؛ فعرف أنه تعرض لوابل من التعذيب داخل السجن؛ فثار في وجه القائد الإنكليزي. تضمّنت المذكرات حديثاً عن عالم القتل والجريمة في مصر، وأنواعها وطرقها والجديد الغريب فيها؛ إلى درجة أن مصر أصبحت حقل تجارب ومعامل للجريمة في العقود الخمسة الأولى من القرن العشرين.

يبدو من الكتاب كيف صار سيدني سميث يمثّل أباً مؤسساً للطب الشرعي في مصر؛ فهو مؤلّف أول كتاب مصري وعربي في الطب الشرعي عام 1924 بالاشتراك مع الطبيب المصري عبد الحميد عامر. ومن المعروف أن سيدني حاضر عن الطب الشرعي في كلية طب القصر العيني في الجامعة المصرية القديمة طوال إقامته، وأرسى معالم ومناهج وأساليب هذا العلم الحيوي، وأوجد له تلامذةً يدينون له بالفضل والعلم حتى بعد رحيله عن قاهرة سعد زغلول.

رواية

ريما بالي: مَن يصنع الكراهية؟

غنوة قضة

رواية «ناي في التخت الغربي» (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر) للكاتبة السورية ريما بالي خطابٌ يقوّض العنصرية، ويخاطب البشر من جميع الأطياف والأعراق، يتجاهل الإحباط الذي يحيط بعالم اليوم، والدعوةَ لما يعتمد على الغريزة وإثارة المخاوف. تترك لنا مستنداً لا يموت، وتكشف لكل من خبر الكراهية أنه ضحية مؤامرة، كان الحكاية صرخة تقول: «لا للعنصرية، تعالوا نُعِدْ للبشر إنسانيتهم، ونجعل من القصص سلاحاً في سبيل ذلك».

«كل إنسان يحمل تحت جلده البشر أجمعين». بهذه العبارة تخلصُ ناي بطلة الحكاية، أو ناديا كما كان اسمها في حلب قبل أن ترحل عنها. تخلص إلى تلك الحقيقة منهكةً، بعد رحلةٍ شبيهة بمتاهة، وسفراتٍ تاهت عبر دهاليزها باحثةً عن ذاتها. وكمن يفتش عن إبرة في كومة قش، تنصب الكاتبة منصةً شبيهة بتلك المناضد التي جلست عليها فرق التخت الشرقي، إنما هنا بصوت امرأة هاربة من بلادها، وبألحان غربيّة، ومقطوعات تبدو غير محدودةً. ذلك أننا تحت سطوة الحرب، وقسوة اللجوء، نسمع أغنيات تأسى على ما حدث، وبعد أن تعقد البطلة آمالها على الهجرة، تكتشفُ أن الألمَ الذي عافته في مدينتها الأولى باقٍ، ولو اختلف شكله وظهر بعدها بأشكال مختلفة. بل إنه لم يكن ألماً فريداً، إنما تُجد عبر تجوالها أنّ الام الناس الذين عرفتهم بذات الحدة والثقل، واختلافهُ عن غيرهم لم يكن سوى من حيث الشكل، وهو ما وحّدهم رغم انتشارهم في كل أنحاء العالم.

نقع هنا على حكاية تناقش مفهوم الهوية التي تحاكم الأفراد، فيُقتَلون ويُنكَّل بهم على إثرها. هذا ما تكشفه رحلة نحو الماضي؛ تنقل ما تعرّض له أصحاب تلك الهويات، وما أظلم حياتهم ودفعهم إلى الرحيل. هو ما يحدث بعد أن تغادر ناي وزوجها غسان إلى بلجيكا، وبعد أن تذوي مدينتها، وتأسى على إغلاق مكتبة خالها. تلتقي ناي بسبيل، وتمسي صديقة تشاركها هاجسها في كشف أصول عائلتها. وعبر تحليل يخضع له كلّ من يبحث عن هويته، تريد الكاتبة أن تصل بنا إلى حقيقة مفادها أنه لا يوجد عرقٌ صافٍ. أثناء رحلة بحثها عن الأجداد بعد صدمة سيسيل بخارطتها الجينية، نستعرض قصص أرمن وُجدوا على طرق حلب ودير الزور إبان المذابح العثمانية، ويهود تنصّروا في زمن حكمت فيه محاكم التفتيش، وصولاً إلى إسبانيا وبلجيكا وحتى أراضي فلسطين المحتلة. نقع على شبكة من الأعراق، ومصائر مُهرت بيد السلطة والسياسة والدين. إذاً تتشارك في الأسى الكبير ذاك شبكة من الأقارب والأخوال. نلتقط قصص يهود بأصول سورية ولبنانية، وأوروبيين بأصول شرقية. هو ما تركز عليه سيسيل في كتابها، وتساعد فيه ناي بعد وقوعها على قصة جدتها الأرمنية في حلب.

من هنا تتورط الكاتبة في عزف غير منفرد، قوامه دكة سردية للقصّ، وامرأة هاربة، وعازفون من بلاد بعيدة. جمعتهم شجرة جينية حاولت سيسيل تشكيل أغصانها المتشعّبة في العالم، من سوريا ولبنان وحتى أميركا. هكذا يثمر الكتاب ثمرةً تختصر كل الأعراق لتصل إلى مفهوم اللاهوية واللاانتماء سوى التعارض. هي تجربة الصراع المريرة، في قصة قريبتها الفلسطينية ليلى الرداد، وما قاسته كابنة أرض محكومة بمحتلين قدموا من كل أرجاء العالم ليقاسموها إرثها وحكايتها.

تحليل قضية الانتماء انطلاقاً من أبناء هويات متعددة حدّ التعارض

«أيّ البلاد هي بلادنا إذاً؟» من هذا التساؤل، تحلل الرواية قضية الانتماء انطلاقاً من أبناء هويات متعددة حد التعارض. هي تجربة الصراع المريرة، سيتعاطفون لا محالة مع هذه الفتاة البريئة المتروكة وسط عالم قاس.

تُظهر الرواية أيضاً الأزراء الذي يتعامل به الأغنياء وأصحاب النفوذ من المُهمّشين، كما لو أنّ أموالهم تُعطيهم الحق في سحق الآخرين كالحشرات، مع الإشارة إلى أنّ معظم هذه الثروات ليست من مصادر شرعية. وهذه حال مستر بلاك الذي يعبس عندما يلتقي بمولي، ويطلب منها أن تغرب عن وجهه، ويتبيّن في ما بعد أنّه جمع أمواله عبر الإتجار بالمخدّرات. تُبيّن الرواية أيضاً مدى سهولة استغلال الفتيات البريئات أمثال مولي، من قِبَل رجال عديمي الأخلاق. صديقها الأول «ويلبور» سرق الأموال التي أودعتها الجدّة في البنك لتأمين مستقبل حفيدتها من خلال خداعها لمعرفة الرقم السّري لبطاقتها المصرفية. أما الصديق الثاني «رودني» الذي يعلم أنّ مولي معجبة به، فلم يتورّع عن استغلال وضعها كفتاة مصابة بالتوحد، لتوريطها في جريمة قتل بهدف إبعاد الشبهات عن تجارته الإنسان في هوية واحدة، مع فضح ما فعلته السياسة والدين من تأطير البشر بالجغرافيا، وتسخير السلطة والدين لتلفيق الأحكام، والإشارة بالتهم، وتكريس العنصرية لبناء عالمٍ قوامه نبذ الآخر وإقصاؤه.

ومن دون أن تبتعد الكاتبة عن رصد الألم السوري، تظل ناي رهينة الحكاية، ورهينة الألم لما آلت إليه الأحوال في بلادها. لا تخرج من دائرة هواجسها حتى بعد انفصالها عن غسان ولقائها بسيزار؛ حب حياتها، وحتى بعد وقوعها تحت تأثير شبكة تجسس تكاد أن ترميها إلى مصير مجهول. تمسي ناي عالقة، ولا تجد الملاذ سوى بالعودة إلى حلب. هكذا نجدها منزوعة المشاعر، تواجه شبح المدينة، وضرورة بيع المكتبة في بلاد لم يعد فيها متسع للكتب. تخاطب والدها الذي توفي قبل سنوات طويلة، وتنضد على أرض المنزل القديم كل ما بقي لها من ترحالها؛ صناديق كتب من غير رفوف تحفظها، وامرأة وحيدة تتساءل عمن صنع الكراهية. ومَن صدح بتلك الألحان السامة في كل أرجاء العالم؟ «أعرف أني تركتُ مستنداً لا يموت، يكشف لمن يعيش الكراهية أنه ضحية مؤامرة. ويحرض من يفكر مثلي ليضم صوته إلى صوتي لنقول لا للعنصرية ولمن اخترعها، ونعيد إلى الإنسان إنسانيته التي لا تتجزأ. ما دامت العنصرية اختراعاً بشرياً، فحتماً يمكن أن نُقوّض بمشروع بشري مضاد ولو كان طويل الأمد، الكتب إحدى أدواته، وبناء فكر صحيح هو سبيله والغاية: أن نعمل... نحن، على إعادة توحيد ما نجحوا في تجزئته وتمزيقه... هم!».

نيتا بروز: العالم بعيون «مولي» المتوحّدة

سلوى دبوق

«أنا خادمتك. أنا الخادمة التي تُنظّف غرفتك في الفندق... أفرغ من عملي فأترك غرفتك في أحسن حال. سريرك مُرتّب ترتيباً مثالياً، عليه أربع وسائد منتفخة، كأن أحداً لم يستلق هنا قط. مراتك الملمّعة تعكس إليك صورة البراءة في وجهك. كأن قذارتك كلّها، أكاذيبك وخياناتك كلها... كأنها مُحيت. أنا خادمتك. أعرف عنك الكثير. لكن، فكّر في هذا: ماذا تعرف عنّي؟». حقّقت رواية «الخادمة» (2022) للكاتبة الكندية نيتا بروز نجاحاً عالميًا وتُمّت ترجمتها إلى لغات عدة لتنتقل أخيراً إلى العربية عن «منشورات الرمل» (ترجمة الحارث النبهان)، على أن تتحول قريباً إلى فيلم سينمائي من إنتاج «شركة بونيفرسال». تحكي الرواية قصة «مولي» الخادمة التي تعمل في «ريجنسي غراند أوتيل» وهي مخلصة ومتفانية في عملها إلى حدّ الهوس. تعاني مولي من التوحّد، ما يجعلها غير قادرة على فهم السلوكيات الاجتماعية السليمة واستيعاب ردّة فعل الأشخاص الذين تلتقي بهم في حياتها اليومية، وغالباً ما تُفسّر تصرفاتهم وأقوالهم على غير محملها الحقيقي، ولا تدرك أنّهم يُحاولون استغلالها لتنفيذ مآربهم. في مُعظم الأحيان، يسخّر زملاؤها من عملها المثالي ويُشبهونها بالة التنظيف «رومبا»، أو يُطلقون عليها لقب «مجنونة الأنظمة». لكنّ مولي تتجاهل كلامهم المؤذي لأنّها تعشق عملها، فلا يوجد شيء تحبّه، على ما يبدو، أكثر من تنظيف الغرف القديمة طوال إقامته، وأرسى معالم القدرة وإعادتها إلى حالة الكمال، وكلّ يوم عمل هو فرصة عارمة بالنسبة إليها، فهي وُلدت لتكون خادمة وفق تعبيرها. بالتالي، لا شيء في العالم يُضاهي متعة تجهيز عربة الخادمة بخزّم صغيرة مُبهجة من الصابون المُغلّف بعناية برائحة زهرة البرتقال، وزجاجات صغيرة من شامبو «كرابتري أند إيفلين» ومناشف ناصعة البياض. وعلى امتداد صفحات الرواية، تصف لنا مولي بشغف استثنائي كيف تقوم بالتنظيف ونفض الغبار وتلميع المرايا وتطهير الحمّام ونفش وبر السجادة. امر يجعلنا نشعر كقراء بالرّغبة في شراء أدوات ومساحيق التنظيف والبدء في تعقيم كل شيء.

في أحد الأيام، تصبح مولي المنسّقة محور الأحداث عندما تجد، أثناء تنظيفها اليومي للغُرف، جثة «مستر بلاك» أحد رجال الأعمال الأثرياء، فتصير هي المُتهمة الرئيسيّة في قضيّة قتل من الدّرجة الأولى. تقبض عليها الشّرطة للتّحقيق معها. تتعلم مولي أن تواجه الحياة بمفردها. تجد نفسها غارقة في بحر من التحدّيات بدون أي شخص يُرشُدها، وخصوصاً بعد رحيل جدّتها الطبية التي كانت ترعاها. يُمكن القول بأنّ الرّواية تنقسم إلى نصفين. الجزء الأول يعتمد على حقيقة أن مولي عموماً غير مُدركة تماماً لما يحدث حولها، فتقوم بتصرفات غبيّة أو تتلفظ بعبارات مُضحكة. الجزء الثاني مثير بطريقة مختلفة، حيث تقوم البطلة بحلّ المشكلات التي تورطت فيها، وتحاول إثبات براءتها من التهمة الخطيرة الموجّهة إليها.

الرواية مُشوّقة ومُناسبة لعشاق الألغاز والبحث عن المُذنب الحقيقي، إذ تنتهي بشكل غير متوقع. تُركّز الكاتبة على تفاصيل ومشاعر الشخصيّة الرئيسيّة مولي التي تحكي القصّة من منظورها الخاص، ويبدو استخدام ضمير المتكلم مُوفقاً للغاية لما فيه من حميميّة وصدق وبساطة وقدرة على تعرية النفس وعرض ما يدور في ذهن البطلة من خواطر وأفكار بعضها يدفعنا إلى القهقهة عالياً. وبالتالي، نشعر ببهجة حقيقيّة عندما نشاهد مولي وهي تحاول فهم ما يحدث حولها، وعندما تُحاول استيعاب ماذا يعني شخص ما من خلال الإيماءات وحركات الرأس والابتسامات المُختلفة. ورغم أن مولي غير واعية إلى حد ما، إلا أنها شخصية ساحرة ولطيفة، وهذا ما يجعل الرواية مُدهشة ومغرية للقراء الذين سيتعاطفون لا مُحالة مع هذه الفتاة البريئة المتروكة وسط عالم قاس.

تُظهر الرواية أيضاً الأزراء الذي يتعامل به الأغنياء وأصحاب النفوذ من المُهمّشين، كما لو أنّ أموالهم تُعطيهم الحق في سحق الآخرين كالحشرات، مع الإشارة إلى أنّ معظم هذه الثروات ليست من مصادر شرعية. وهذه حال مستر بلاك الذي يعبس عندما يلتقي بمولي، ويطلب منها أن تغرب عن وجهه، ويتبيّن في ما بعد أنّه جمع أمواله عبر الإتجار بالمخدّرات. تُبيّن الرواية أيضاً مدى سهولة استغلال الفتيات البريئات أمثال مولي، من قِبَل رجال عديمي الأخلاق. صديقها الأول «ويلبور» سرق الأموال التي أودعتها الجدّة في البنك لتأمين مستقبل حفيدتها من خلال خداعها لمعرفة الرقم السّري لبطاقتها المصرفية. أما الصديق الثاني «رودني» الذي يعلم أنّ مولي معجبة به، فلم يتورّع عن استغلال وضعها كفتاة مصابة بالتوحد، لتوريطها في جريمة قتل بهدف إبعاد الشبهات عن تجارته بالمنوعات.

ولكن الحياة ليست سوداء كالحة بالمطلق، فلا يزال هناك بعض الأشخاص الطيبين والأصدقاء الحقيقيين الذين سيقفون للدفاع عن مولي، ومساعدتها للخروج من أزمتها واستعادة سمعتها ووظيفتها. وهنا يأتي دور السّيد برستون بوّاب الفندق وصديق الجدّة الراحلة، وابنته المُحامية اللذين سيساندان الفتاة المسكينة بكل قوّة.

تتميّز الرواية بالحوار الأسر بين الشّخصيات الذي يأخذ أحياناً اتجاهات كوميدية، ويكشف عن عدم فهم مولي للنّاس وحيرتها أمام بعض تصرفات وتعليقات زملائها ونزلاء الفندق حيث تعمل. كما يكشف المونولوغ الداخلي عن رؤية مولي المحدودة للعالم التي تجعلها تظن أن الحياة مُكوّنة من لونين فقط، الأبيض والأسود. فمولي لا تُدرك أن هناك ألواناً أخرى خُلقت لنجد للسعادة أبواباً ونوافذ ودروباً عديدة.

الرّواية ممتعة ببسيطة غير مُتكلّفة، وتحمل عمقاً عاطفياً كبيراً، وخصوصاً في ما يتعلق بعلاقة مولي بجدّتها ومعاناتها أثناء احتضارها وبعد موتها. بالتأكيد، لن يستطيع القارئ تركها من دون إكمالها، لأنّها ستجذبه بأسلوبها السّردي الجذّاب. لقد نجحت الكاتبة في بناء عالم الفندق بكلّ تفاصيله الصّغيرة بشكل مُبهر. كما برعت في رسم شخصية مولي المُختلفة والمهووسة بالتنظيف. حتى الشخصيات الثانوية كانت مثيرة للاهتمام من «مستر بلاك» الثري الغاضب إلى مدير الفندق «مستر سنو» الحازم والحكيم. وبالرغم من معرفتنا كقراء منذ البداية من هم الأصدقاء والأعداء، ومن هم الذئاب في ثياب الخراف، نذهب في هذه الرحلة الرّوائية الشيّقة لأنّنا نرغب في مشاهدة مولي تكتشف ذلك بنفسها.

ستتحوّل الرواية قريباً إلى فيلم سينمائي

لمحات

مرتضى الكزار

يمزج الكاتب والسينمائي العراقي مرتضى الكزار بين الواقع وأساطير بلاد الرافدين في روايته الجديدة «هذا النهر يعرف اسمي» (دار الساقي). تحكي الرواية قصة الشابة شارلوت التي تفقد في يوم مشحون ومصيري ساقها الاصطناعية ووالدها المُبشّر في مدينة البصرة العراقية. تنطلق شارلوت في رحلة استكشافية مثيرة، تحمل بين ثنايا البحث الحثيث عن والدها. تستعين في ذلك بمجموعة من الخطاطين الحافظين لتاريخ المدينة، فتأخذها أقلامهم وتوجيهاتهم إلى أعماق متاهات هذا المجتمع المتنوع والمعقد بشكل لا يصدق. تتلون الصفحات بروح التشويق والإثارة، حيث تُضاف شارلوت آثار البعثات التبشيرية التي تركت بصماتها المتراكمة على مر العصور، وتتعرف إلى القرى العائمة التي تعج بالأساطير والخرافات، في أعماق الأهوار الغامضة. ينسج الكاتب ببراعة فائقة أحداث الرواية، فتتقاطع خيوطها بين الواقع والخيال، وتتحول إلى تاريخ ملي، بالحكايات الشيّقة والمغامرات المثيرة التي تأخذ القارئ في رحلة مذهلة عبر بقعة غامضة وغير معروفة من وجه الأرض.

محمود عيسى موسى

يُقدّم الكاتب الفلسطيني الأردني محمود عيسى موسى في كتابه الجديد «أسطورة ليلو وحتّ... حكاية عشق كنعانيّ» (دار عائدون للنشر والتوزيع) شخصيتين أسطوريتين من التراث الكنعاني. يحكي قصة ليلو وحتّ وصفيهما كعاشقين من فلسطين أو أي جزء من العالم يعشق الجمال والحرية. يُجسّد هذان العاشقان روح الصّبابة والحرث والخصوبة، ويعيشان الحب بأبعاد متعددة. يُعيد الكاتب رواية هذه الأسطورة المتجددة عبر الزمان والمكان بأسلوبه الخاص، مركزاً على ثيمة الحب الذي يشمل الجسد والروح، ويقاوم الظلام والقهر والموت، مُعتمداً على الموروث الريفي والفلاحي والطبيعة الثرية لفلسطين وبلاد الشام. يخلق موسى عوالم وملامح أسطورية في هذه القصة ويعطيها صفات ملحمية، ويُعبّر أيضاً عن شغفه بالحياة والحبّ والخير والجمال بلغة قريبة من العامّيّة والحكايات الشعبية، ولكنها تحمل جذوراً كنعانية وفينيقية وآرامية. يتميز النص بالخصوصية من خلال هويته الفلسطينية الإنسانية وهويته الإبداعية، وقد لجأ الكاتب إلى استخدام تقنيات وأدوات وعناصر مسرحية، بالإضافة إلى الشعرية التي أضفت على النص تأثيرات موسيقية وجمالية وعزّزت من قوة التعبير.

محمد ساري

تُقدّم رواية «جسدي المستباح: حبّ في عصف الربيع» (منشورات المتوسط) للكاتب والمترجم الجزائري محمد ساري عالماً يتجاوز حدود الواقع، حيث نلتقي ببملكة، الشابة الجزائرية الحالة والحساسة التي تجد نفسها مُحاصرة في جحيم متعدد الأبعاد. تتعايش مليكة مع القمع الأسري والاعتداء الجنسي والظلم الذي تتعرض له من قبل زوج والدتها، ما يدفعها إلى حافة الانهيار النفسي، فتُقرر العائلة أن تأخذ مليكة في رحلة استشفاء تجريبية في عالم الجن والمشعوذين. لكن الرواية تبلغ ذروتها عندما يُقرر يعقوب حبيب مليكة الانضمام إلى رفاقه المقاتلين في الجبل بعد اغتيال الرئيس الجزائري بوضياف عام 1994. تقرر الفتاة الفرار مع يعقوب، لكنها تجد نفسها محاصرة بين وحوش الجماعات الدينية المسلحة التي يعتدي أفرادها عليها بدون رحمة. الرواية تُجسّد مأساة الجزائر خلال فترة العشرية السوداء، في التسعينيات. وقد كتب محمد ساري هذه الرواية بأسلوب يجبر القراء، على الاندماج مع أحداثها والتفاعل مع الصورة المؤلمة للجزائر في تلك المرحلة.

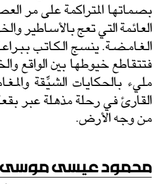

نبيل مملوك

«حين يجمعنا سرير واحد/ سأخطف يدها بهدوء/ وأحصي اللمسات التي تعاقبت/ على كفّها/ سأعانقها بعد انطفاء الرغبة/ كي تتعرف الملائكة على بعضها/ وتختلط الأثام/ ونقف ساعة غفوتنا/ على برج كبير». طوّر الشاعر والصحافي اللبناني نبيل مملوك من أسلوبه ورؤيته الفنية في مجموعته الشعرية الجديدة «أرامل الرمل» الصادرة حديثاً عن «دار لازورد» في بغداد، وهي المجموعة الشعرية الثانية بعد مجموعته الأولى «مشاتل من لحية العتمة» (دار زمكان» في بيروت). يتضمن الديوان مجموعة من القصائد الوجدانية الرقيقة تستعرض الواقع الراهن وترسم مأساة البشر في هذا العالم، تتنقل القصائد بين الأفكار الشخصية والأحاسيس العاطفية والمشاعر الجماعية، وتعكس براعة الشاعر في ربط الخاص بالعام. يتأمل مملوك في تجارب الحياة المختلفة ويُعبّر بواسطة الشعر عن المشكلات الاجتماعية والسياسية بطريقة مؤثرة تنجح في نقل المشاعر والأفكار بشكل ملموس.

سوسن الرمّاح

تنتصر الكاتبة اللبنانية سوسن الرمّاح في باكورتها الروائية «ذاكرة الأنا» (دار الفارابي) على الألم بالقلم وعلى الحرب بالحبّ وعلى الطائفيّة بحروف نضيء، سواد عتمة الليل المتربّص بمستقبل لبنان. تنتفض الكاتبة للمرأة من خلال بطلة الرّواية هدى ومعاناتها، ومن خلال شخصيات لينا وحنان وميساء. يتمثل الموضوع الأساسي للرواية في الحبّ الحقيقي والصادق. تعتبر الكاتبة أنّ الثورة الحقيقية على الطائفية والذكورية هي الطريق الصحيح لتحقيق الانتماء، الوطني والقيم الإنسانية السّامية. كذلك تتناول الرمّاح العديد من القضايا في رواياتها ضمن إطار سردي منسّق وبدون أي وعظ أو تكلّف. ومن بين هذه القضايا، نجد مسائل الزواج المدني والخيانة الزوجية وتعنيف المرأة واستغلالها. بالإضافة إلى الظلم الذي يتعرض له الوطن وأبناؤه الذين يسعون إلى الهجرة. كلّ هذه الثيمات تعرضها الذاكرة بوساطة زمن سرديّ صاعد تقطعه رجعات طفيفة بغية إيضاح مسألة أو تعليل موقف.

جين شينودا بولين

تستحضر الكاتبة وعالمة النفس الأميركية جين شينودا بولين في كتابها «في كل امرأة أسطورة: إطلالة على أعماق النساء» (1983) الصادر بترجمته العربية (دار مسكيلياني. ترجمة عادل قرامي) سبع أساطير نسائية لآلهات قديمات لوصف أنماط السلوك والصفات الشخصية لكل امرأة. تعتبر شينودا أنّ لكلّ امرأة دور بطولة تؤديه في حياتها، ولكل حكاية نسائية أبعاد أسطورية تُشكّل ملامحها. وكانت فكرة بولين الجريئة هي أنه بالطريقة نفسها التي كانت فيها المرأة غير مدركة لتأثيرات الصور الثقافية النمطية عليها، كانت أيضاً غير مدركة للقوى الأسطورية الكامنة داخلها. تعتقد بولين أن فهم هذه الأنماط وعلاقاتها المتبادلة يُقدّم بدائل مطمئنة وواقعية تأخذ المرأة بعيداً عن تصورات ضيقة مثل الذكورة/ الأنوثة، والأم/ الحبيبة، المرأة العاملة/ ربة البيت. تُقدّم شينودا هذه الأنماط عبر استلهام سبع آلهات مثالية، يمكن لكل امرأة التعرّف عليها، من أرتيميس المستقلة وأثينا الهادئة إلى ديميتر إلهة المعطاءة وأفروديت المبدعة، وتشرح كيفية تحديد أي نمط منها يجب تقويته، وأي منها يجب التغلب عليه، وكيفية استغلال قوة هذه الأنماط الأسطورية لتصبح المرأة «بطلة» في قصة حياتها الشخصية.

أوراق

روزنامة كامبرلي

زكريا محمد *

في عام 1834، مضى المستكشف سير جورج غري George Grey وفريقه إلى أقصى شمال غرب أستراليا، وصعد إلى جرف يقع على نهر غلينلغ حيث صادفتهم رسمة بديعة لما يعتقد أنه الوادنجينا Wandjina في كهف في منطقة كمبرلي. والواندجينا كائن ميثولوجي مرتبط بالمطر عند سكان أستراليا الأصليين. رسم جري الشخص الذي يرتدي روباً طويلاً، وتلتف حول رأسه هالة فيها ما يشبه الكتابة. ثم نشره ضمن كتاب عن رحلته الاستكشافية. وقد عثرت على نسختين من الرسم: واحدة مخطّطة كما تظهر الصورة المرفقة، وأخرى فقدت خطوطها. وأظن أن الصورة الأصلية هي المخطّطة. على أي حال، أثار الرسم بعد نشره جدالات واسعة كانت في غالبها ذات طابع عنصري، إذ رُئِي أنّ السكان الأصليين لا يمكن لهم أن يرسموا شيئاً مثل هذا. كذلك افتُرض أن العلامات في أعلى الرأس طراز من الكتابة وسكان أستراليا الأصليين لم يصلوا إلى الكتابة.

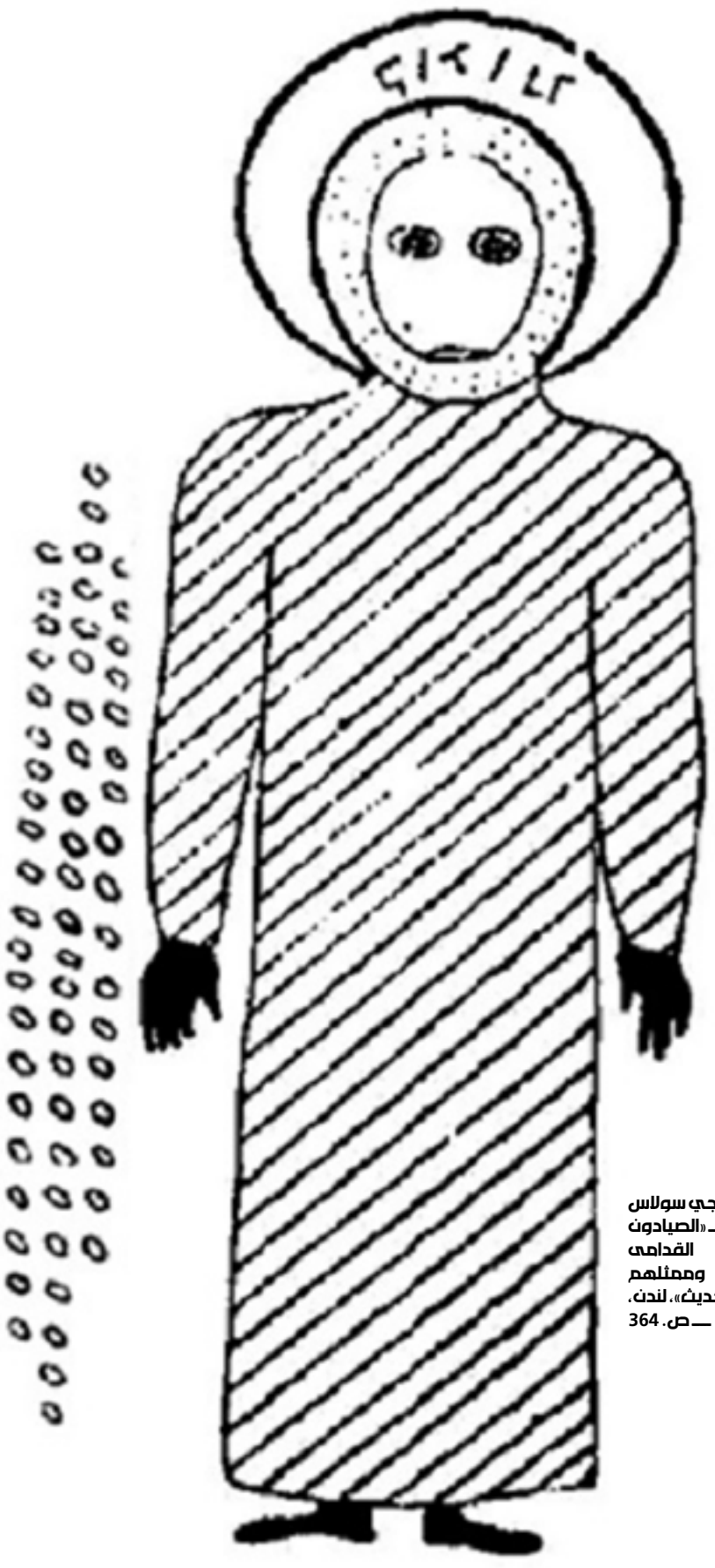

دبليو جي سولاس ــ «الصيادون القدامى وممثلهم الحديث»، لندن، 1915 ــ ص. 364

لذا، فقد اقترح أن الصورة تعود إلى أناس من المالايا في سومطرة، وأنها تمثل مخلوقاً ميثولوجياً سومطرياً. واقترح آخرون أنها يابانية الأصل. بل إن بعضهم اقترح أنها من عمل بحّارة أوروبيين. وكل هذا يعكس احتقاراً عميقاً لسكان أستراليا الأصليين. وهكذا تحولت الرسمة إلى موضوع لجدال إثني عنصري لا معنى له ولا قيمة. وهدف هذه المادة ليس الرد على جدالات العنصريين الغربيين، بل محاولة قراءة الدوائر الصغيرة إلى جانب صورة الرجل، التي نعتقد أنها تمثل روزنامة على علاقة بحركة الماء العذب في الكون. وهو ما تشير إليه بالفعل معتقدات السكان الأصليين الذي تربط الواندجينا بالمطر والماء.

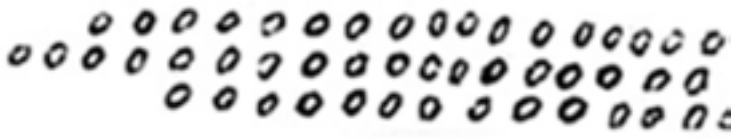

الروزنامة مطروحة افقياً

الروزنامة معقّدة، وتوزيع الدوائر- الأرقام فيها يوحي باستخدامات متنوعة. لكننا نستطيع أن نعثر على خيط ما يدلّنا على معنى هذه الأرقام التي تأخذ شكل ثلاثة خطوط تحوي الأرقام التالية: 20+24+18= 62. ويمكن إبداء الملاحظات التالي حول الروزنامة التي نفترضها.

أولاً: لدينا ثلاثة خطوط من الدوائر، أو الثقوب، مختلفة الطول. وهذا يذكّر بالتشكيل الثلاثي الذي عرضت له في كتابي «سنة الحية: روزنامات العصور الحجرية» الصادر عام 2022. وقد بيّنت فيه أن نجوماً ثلاثاً هي التي تتحكّم بحركة الماء العذب في الكون عند القدماء. كما أوضحت أن النجوم الثلاث مختلفة من حيث الحجم: كبير، متوسط، وصغير. الخطوط الثلاثة تمثيل لهذه النجوم، لكن عبر ثلاثة صفوف من الدوائر. وهذه الصفوف مشكّلة هكذا: صف طويل في الوسط، ثم صف متوسط الحجم وصف صغير على الجانبين، أي أنها تشبه في تموضعها تموضع النجوم الثلاث.

ثانياً: وكما نرى، لا تبدأ الخطوط أو تنتهي معاً، لكنها تلتقي معاً في منطقة معينة، تاركة عدداً من الدوائر خارج اللقاء.

ثالثاً: أما عدد الدوائر في منطقة اللقاء، فهي هكذا: 17، 18، 19= 54. ومع أن الأرقام في هذه المنطقة مختلفة، فقد جرى ترتيب الدوائر بحيث تبدو فيها الخطوط متساوية، وبشكل يجعلك تعمد إلى حسابها ككتلة واحدة مكوّنة من 54 دائرة.

رابعاً: وقد بيّنت في كتابي المذكور أن الرقم 54 كان رمزاً لسنة الماء العذب في الكون. فهو سدس هذه السنة. وعند ضربه بالرقم 6، نحصل على الرقم 324: 54×6= 324. وهذا الرقم هو رقم سنة العصور الحجرية. وهي سنة مقسومة إلى فصلين: فصل بيات الماء السفلي في الأعماق، وهو مكون من 243 يوماً، وفصل خروج الماء السفلي من بياته وهو مكوّن من 81 يوماً. ذلك أن الماء العذب في الكون يتصرف كالحية في بياتها ثم خروجها من البيات.

سادساً: أما الأرقام التي تزيد عن الرقم 54، فهي 8 أرقام موزعة في الأعلى والأدنى: ستة منها في الخط الأوسط واثنان في الخط الأيسر. وهي تمثل الأشهر الثمانية التي تشكل سنة الـ 324 يوماً. ذلك أن كل شهر منها يساوي 40,5 يوماً.

سابعاً: لكن الخط الأوسط حظي بست من الدوائر، وهي الأشهر الستة لفترة البيات: 243 يوماً. أما الخط الأيسر (الأعلى عند طرح الخطوط أفقياً) فقد حظي بدائرتين هما فترة الانسياب: 81 يوماً.

لكنني لا أدري لِم قسمت الدوائر الست في الخط الأوسط إلى قسمين: 4+2. لكن ربما كي تعطينا الرقم 4 الذي هو نصف سنة الحية القصيرة.

أما الخطوط على جسم الرجل أو الرجل الكاهن فهي 35 خطاً. لكن هناك في الزاوية اليمنى في أسفل الروب ما يبدو أنه خط آخر. وإذا صح هذا فنحن مع 36 خطاً. وهذا الرقم مختصر للرقم 324 بمقدار: 1:9. 36×9=324.

وكنت قد بدأت كتابي «سنة الحية روزنامات العصور الحجرية» بقطعة من سيبيريا عمرها بين 20-23 ألف سنة تدعى «لوح مالتا» أو «إبزيم مالتا». ولهذه القطعة وجهان: وجه عليه لوالب، أو حيات متطويات، واللولب المركزي مشكّل بالثقوب التي عددها 243 ثقباً، وتمثل فترة بيات الماء السفلي. أما الوجه الثاني، فعليه ثلاث حيات متموجات. الحيات الثلاث تموضع الخطوط الثلاثة لروزنامة كمبرلي: الخط الطويل في الوسط يساوي الحية الكبيرة، والخطان المتوسط والصغير على الجانبين يمثلان الحيتين الأخريين.

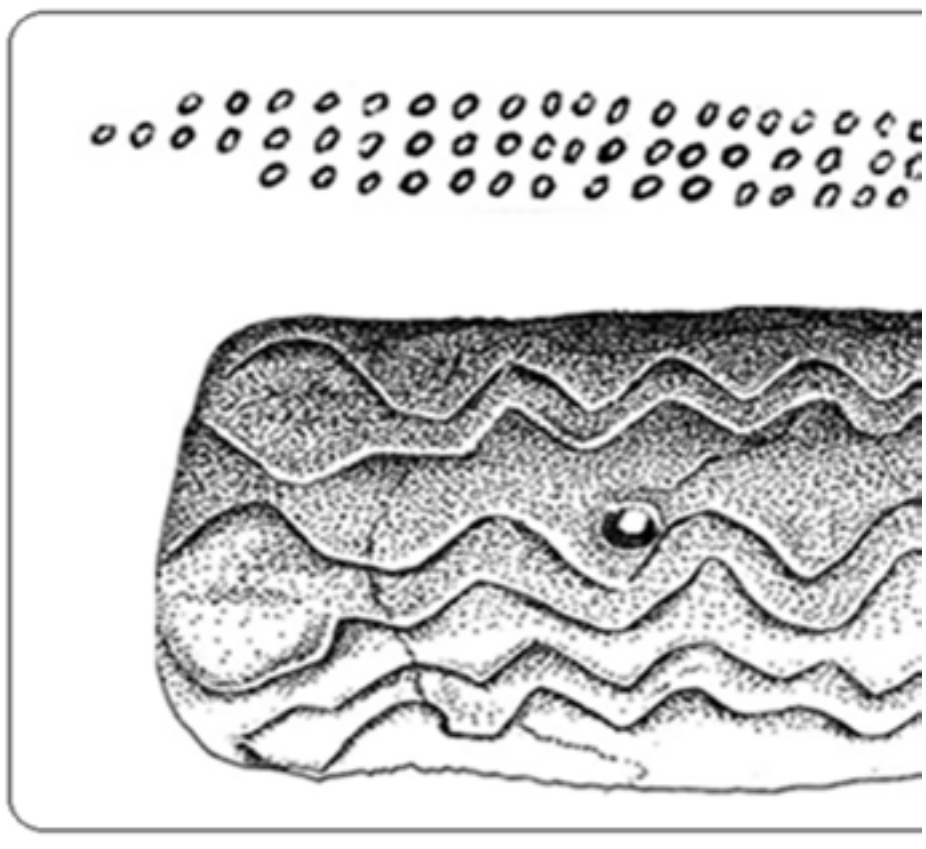

وهذا يبرهن على صحة فرضيتنا حول رسمة كمبرلي. كما يبرهن أن سكّان كامبرلي الأستراليين القدماء لم يكونوا قوماً متخلّفين بلا معرفة.

* شاعر وباحث فلسطيني

Samedi 8 Juillet 2023 no71
السبت 8 تموز 2023 العدد 71

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

السعوديون متمسكون بحقوق الفلسطينيين [7]

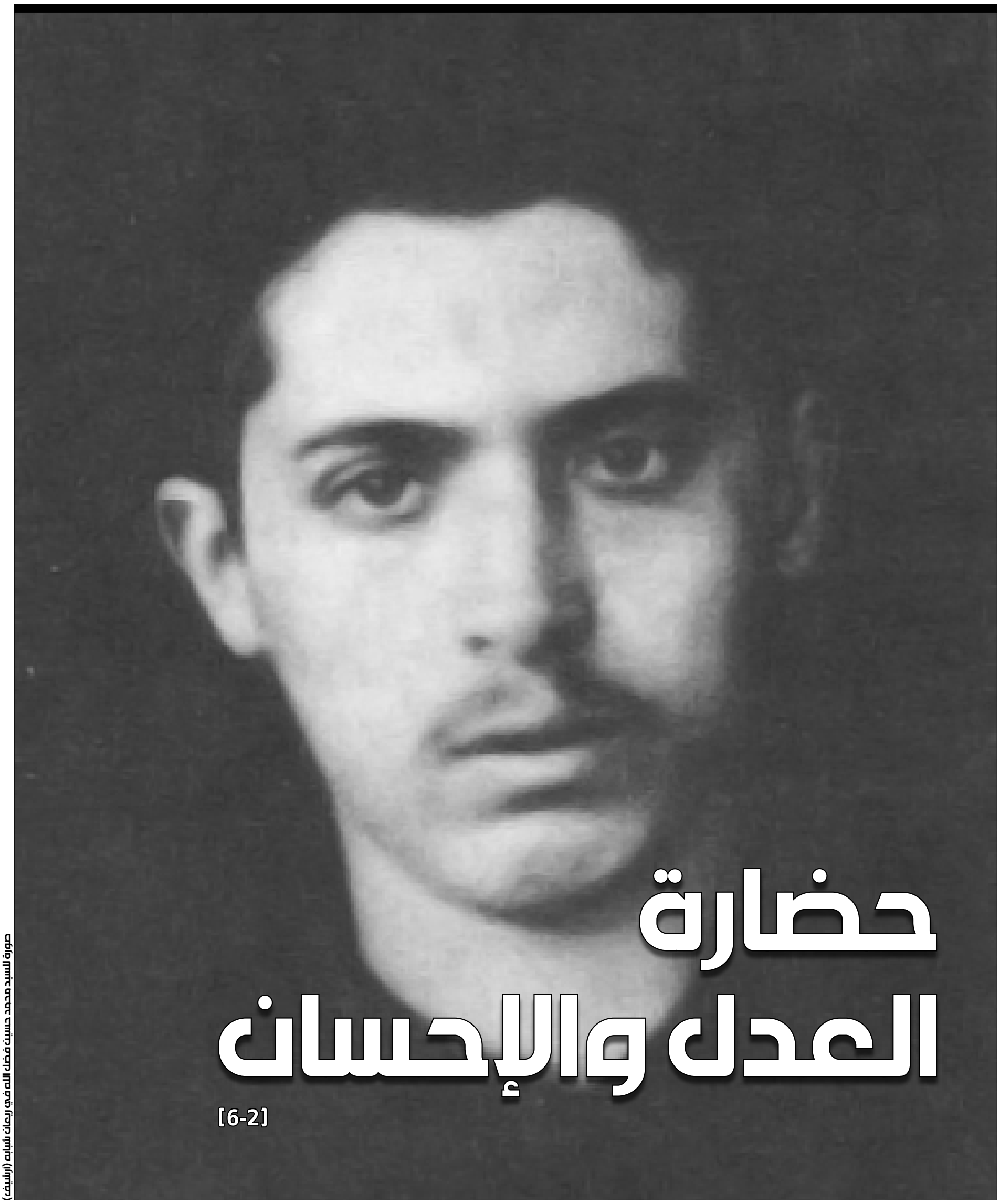

حضارة العدل والإحسان

[6-2]

صورة للسيد محمد حسين فضل الله في ريعان شبابه (ارشيف)

13 عاماً على رحيل المرجع السيد محمد حسين فضل الله

«لعلّ المشكلة في كثير من مواقعنا في الشرق او في العالم الثالث كلّه، هي اننا مشغولون بمشكلة الظلم وكيف نتخفّف منه. لاننا نعيش الظلم في بيوتنا واسواقنا ونواديناً ومواقع الحكم فينا، وفي مواقع قوة الاستكبار العالمي على الشعوب المستضعفة. لذلك نجد الناس مشغولين بمجاملة الظلم هنا وهناك» بيد ان العالم يقوم على اساس العدل «لقد ارسلنا رسلنا بالبيّنات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» (الحديد: 25). فالعدل «حقيقة رسالية تشمل كل الرسالات التي بعث الله بها رسله». بهذه الكلمات افتتح العلّامة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله إحدى خطبه (كانون الثاني 2003)، مشيرا إلى ان هذا الاساس يمكن ان يؤدي إلى الاستقرار في العالم، حيث يلتقي الناس على مبدا احترام بعضهم، من خلال الشريعة والالتزامات العقدية التي تربطهم. إذ إن «كل من يؤدّي للآخر حقّه، هو إنسان مؤمن، يعيش العدل قيمة في نفسه، وسلوكاً عملياً في حركته وواقعه».
فما هي نظرة المرجع فضل الله إلى القوانين التي تُعدّ احياناً سبيلاً لتحقيق العدالة؟ هل يرى مساحة للتلاقي بين التشريع الإسلامي وهذه القوانين؟ وماذا عن الاسس الفقهية التي ارتكز عليها في فتاويه المتعلّقة بالقوانين الوضعية والنظام العام؟ وكيف عمل على تحقيق مسار العدالة خلال مسيرته العلمية والاجتهادية؟

مسار العدالة في فكر السيد

الحياة حركة حقوق متبادلة

فاطمة خشاب درويش

«القاعدة التي أراد تعالى للناس أن يسيروا عليها، هي العدل في كلّ شيء، على مستوى الحقوق والواجبات بين الناس جميعاً، فحتى الأنبياء أكّدوا العدل مع الأمّة والناس، من خلال ما بذلوه من جهد وتجارب في سبيل إحقاق الحقّ، وتوعية الناس وتزكيتهم، بما يجعلهم ينفتحون على قيمة العدل في كلّ أوضاعهم وعلاقاتهم» لطالما أكد السيّد فضل الله أهمية العدل ودوره في سلامة المجتمعات الإنسانية، وخاصة أنّ جوهر العدل هو إحقاق الحق وإعطاء كل ذي حقّ حقّه، بعيداً من أي حسابات مذهبية وطائفية أو تعقيدات أو حتى اعتبارات.

علاقة عدل

يتحدث السيد فضل الله عن علاقة الإنسان بالإنسان الآخر، واصفاً إيّاها بأنها «علاقة عدل»، وذلك «لأن الله جعل لكلّ إنسان حقاً على الناس، فالحياة هي حركة حقوق متبادلة بين الناس، فليس لأحد حقّ مطلق، حتى الأنبياء، بل إنّ من حقهم على الناس أن يؤمنوا بهم ويستجيبوا لرسالتهم وينصرونهم، وللناس

> **لا يجوز لأي قيادة أن تتنكر للقانون وتنحرف عن مسار العدل**
>
> **شدد على أهمية أن يعيش الإنسان العدل ويتنفسه سلوكاً وتصرفاً**

عليهم حقّ الدعوة والإرشاد والتوجيه والتزكية والتعليم وما إلى ذلك». ويؤكد السيد أهمية أن يعيش الإنسان العدل ويتنفّسه سلوكاً وتصرفاً، فلا يظلم نفسه بابتعاده عن الله، ولا يظلم زوجه وأولاده وجيرانه، ولا يعتدي على حقوق الناس، بل أن يمارس «العدل عبر حمل الحقّ وتأكيده وحمايته والدّفاع عنه». فكونه عادل مع الله ونفسه ومع الناس، يعني أنّه «يعيش الدّين بروحه وتطبيقاته العمليّة، وليس مجرّد تنظير وتجريد وطقوس خالية من المعنى الجوهريّ الذي يلتزم العدل في كلّ حركة نخطوها في الدنيا. فهل نحن العادلون يا ترى؟» يتساءل فضل الله.

الدين والقانون

أفاد السيد فضل الله في كتابه «الدين بين الأخلاق والقانون» (1966) أنّ الواقع التشريعي للدين الإسلامي الذي يحاول أن يجمع حياة الناس وينظّمها في إطار قانوني متين، لم يغفل عن أي جانب من جوانب الحياة التي تحتاج إلى تخطيط إلا ووضع لها شريعة، وسنّ لها قانوناً. إذ «لا بدّ أن يكون للمجتمع قانون يسير عليه، فينطلق الناس من خلال الضوابط الشرعية والقانونية للحكم على الأشياء وعلى الناس» ووفقاً لفضل الله «كانت القوانين الجزئية والجنائية سبيل الدين للحدّ من جموح المنحرفين والمجرمين الذين لا يستكنون إلى عقيدة تردعهم أو أخلاق تصدّهم» وذلك انطلاقاً من أن الطبيعة الإنسانية تتراجع أمام الترغيب والترهيب. موضحاً أن «المجتمع عندما يحكمه القانون وتخضع له سلوكيات كل الناس، والعلاقات المجتمعية فيما بينهم، يشعر فيه الإنسان البريء بأنّه لا يتعرّض لأيّ سوء، لأن الناس عندما لا تحكم على الآخرين، ولا تتصرّف إلا بحجّة واضحة يمكن أن تثبت أمام القضاء والمحاكم، فإنّ البريء حينها لا يخاف». أما إذا كان المجتمع يأخذ بالظن والوهم ولا يرتكز إلى حجّة (..)، فإنّ الإنسان لا يعرف من أين تأتيه الرّياح، ولا يعرف من أين تهجم عليه إشاعة من شخص يحكم عليه من دون أساس»، من دون الارتكاز إلى قانون أو قاعدة، ويبقى بذلك المجتمع قلقاً، بدءاً من البيت، ووصولاً إلى المجتمع بشكل عام.

ويحسم السيد النقاش بشأن علاقة الدين والدولة، قائلاً: «لا مشكلة من حيث المبدأ بين الدين والقانون إلا بمقدار ما تنحرف به بعض القوانين الوضعية عن قانون السماء وشريعة الله الهادية إلى بناء الإنسان، ونظم أموره في جميع المجالات».

ويعدّ فضل الله القانون الإسلامي «حالة مدنية في الإنسان منطلقة من إرادة إلهية. والإرادة الإلهية ليست هي مزاج (رجال الدين)، وليست حتى مزاج النبي (ص) وإنما هي وحي الله الذي يطل على الإنسان، ويعرف ما يصلحه وما يفسده، فيشرع له»، ويشرح مفهومَي التشريع الإسلامي الذي «هو تشريع مدني يخاطب حياة الإنسان» والقانون الوضعي -القانون الذي وضعه الإنسان- الذي «يركز على الإنسان ككائن اجتماعي، مسؤول عن أعماله تجاه غيره وتجاه المجتمع، وتنتظم حياته الخاصة بمقدار ما ترتبط بسلامة المجتمع».

ويؤكد السيد أن القانون الوضعي هو جزء من الدين والتشريع الإسلامي «لأن الإسلام يختزن العبادة والعقيدة ويختزن القانون في داخله، صار الإسلام حياة مدنية أيضاً، باعتبار أنه يشتمل على القانون الذي ينظم للإنسان كل شؤون حياته العامة والخاصة»، إذ قد تنبثق بعض القوانين من الإسلام، وقد يكون هناك قانون غير إسلامي، يفترض أن تكون القيادة الإسلامية، برأي السيد، «مضطرة تحت القانون، هكذا منذ عصر الرسول (ص) ولا يجوز لأي قيادة أن تتنكر للقانون، وتنحرف عن مسار العدل».

مساحة للقاء

يقر السيد بإمكانية وجود مساحة للتلاقي بين الشريعة والقانون، في ما يتصل بفقه المعاملات، إذ أقر الفقه بشروط التراضي كما في عقود الشراكة، والتاجير... وتظل قاعدة الرضا قائمة في مجمل الحالات للدلالة على صحة العقد بين طرفين أو مجموعة أطراف.

وعند دراسة موضوع القضاء وما يتصل به من فقه وقوانين وضعية، يحرّم السيد مخالفة الشريعة في عمل القاضي أو المحامي، فلا يجوز للقاضي أن يحرّم ما أحل الله أو يبيح ما حرّمه، أما إذا كان القاضي دقيقاً في أحكامه، ولا يضيع حقوق الناس، وكان مراقباً لشريعة الله في كل ما يصدر من أحكام، فإنه لن يقوم بالتالي بعمل محرّم.

وهذا ما ينطبق بشكل أو باخر على عمل المحامي، إذ يتوجب عليه التدقيق في ما يعرض عليه من قضايا ومدى موافقتها الأحكام الشرعية، فإذا كانت غير موافقة للشريعة، فلا تجوز له الموافقة على تبرئة المدان، او إدانة البريء، ولا يجوز للمحامي في مطلق الأحوال تبرئة المجرم في الوقت الذي يتوجب عليه الدفاع عن الحق.

فتاوى النظام العام

يشرح عضو المكتب الشرعي في مؤسسة السيد فضل الله الشيخ حسين عبد الله الأسس التي أفتى بموجبها المرجع فضل الله الفتاوى التي تؤكد على وجوب الالتزام بالنظام العام، مشيراً إلى أن «الدليل العقلي هو الأساس في الفتوى، باعتبار أن الالتزام بالنظام هو أمر حسن والفوضى أمر قبيح ومرفوض، والإسلام يحكم بالدليل العقلي الذي يؤكد وجوب الالتزام بالنظام العام لمصلحة الناس».

ويضيف: «عندما يلتزم الإنسان بنظام السير ودفع الضرائب وفواتير الكهرباء، هذا يعود لمصلحة الناس، حتى إذا كان الإنسان يعيش في بلد غير إسلامي فمسألة التزام النظام العام هي واجبة لأن ذلك يرتبط بمصلحة الناس، وحتى بالنسبة إلى دفع الضرائب فالمواطن يدفع للدولة التي تؤمن حقوق الناس وتنظم مصالحها». ويعدد الشيخ عبد الله عدداً من فتاوى فضل الله التي ترتبط بالنظام العام، على سبيل المثال:

- يحرّم سرقة الكهرباء والمياه.
- يحرّم التزوير في المستندات الرسمية.
- يحرّم الكذب على الدولة من أجل الحصول على مساعدات.
- يحرّم مخالفة النظام والتعدي على المرافق العامة لأنه تعدٍ على حقوق الناس.
- يحرّم قيادة السيارة من دون رخصة.
- يجب دفع الضرائب والفواتير.
- يجب الالتزام بقانون السير.
- يجب المحافظة على البيئة.

مكتب القضاء الشرعي

أسّس السيد فضل الله مكتب القضاء الشرعي عام 1986 سعياً منه لعلاج المشكلات والخلافات التي تحدث داخل المجتمع سواء الأسرية والعائلية أو المالية أو العقارية أو غيرها، وقد اكتسب المكتب ثقة جعلته مقصداً من كل الطوائف والمذاهب وساهم في التخفيف من التوترات التي كانت تحدث غالباً بسبب بقاء النزاع لفترات طويلة، وقد أخذت أحكامه صفة الإلزام لكونها تأتي بناء على التزام طرفي النزاع بمضمونها، إذ تُطلق بمبدأ العدالة بعيداً عن كل الاعتبارات التي قد تحصل. بعد وفاة السيد لا يزال المكتب مفتوحاً ويستقبل كل القضايا والمراجعين بنفس الروحية التي بُني عليها لحلّ المشكلات ضمن الموازين الشرعية للقضاء.

تحت القوس

حضارة العدل والإحسان

د. هشام نشابة

في ذكرى وفاة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، قدّس الله سرّه وأعزّ ذكره، وأمدّ ظلّه وتغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.
في هذه الأيام المباركة من شهر ذي الحجة، تحلّ ذكرى وفاة سيّد من سادة هذه الأمة وعالم من أجلّ علمائها. في هذه الذكرى، يطيب للمرء أن يتذكّر فضل العلم والعلماء، وأن يذكر هؤلاء بدورهم في عمران الأرض وقيام الحضارات.
إن للعلماء دوراً في توجيه الناس، جميع الناس، وفرصةً متميزة في هذا المجال، إذ هم يقفون على المنابر مرّة في الأسبوع على الأقل، يخاطبون عقول الناس وعواطفهم، ليأمروهم بما أمر الله عزّ وجل بالمعروف وينهون عن المنكر، عسى أن يستجيبوا لهم، والله يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، وهو على كل شيء قدير.
ولو شاء المؤرخون أن ينظروا في تاريخ الحضارات، وأن يختصروا كل حضارة بكلمات، لقالوا: إن حضارة الصين القديمة هي حضارة الحكمة، وحضارة اليونان القديمة هي الفلسفة، وحضارة الرومان هي حضارة القانون، وحضارة القرون الوسطى هي حضارة الحروب، والحضارة الحديثة هي حضارة التكنولوجيا، والحضارة المعاصرة هي حضارة الحاسوب، فما عسانا نختصر به الحضارة الإسلامية التي تقع بين الوسيط والحديث من هذه الحضارة.
أتجرّأ فأقول: إنها «حضارة العدل والإحسان، حضارة من يعمل خيراً يره، ومن يعمل شراً يره»، حضارة «لا تزر وازرة وزر أخرى»، ولأن العدل قاسٍ أحياناً، فقد جاء الإحسان ليخفف من هذه القسوة العادلة.
ولعل أعظم معاني «الإحسان» هو «المحبة»، فلا يحسن للناس إلا المحبّ لهم، و«المحبة» جوهر المسيحية وأعظم ما تدعو له في العلاقة بين الإنسان وأخيه، وبين الإنسان ومحيطه.
يمثل السيد محمد حسين فضل الله، في فكره وسلوكه، في نظري، «حضارة العدل والإحسان» وهو لذلك يمثل في عصرنا الحضارة الإسلامية بأنبل معانيها وجوهر رسالتها.
كان سماحته مجتهداً في الدين ومجتهداً في المذهب، توافرت في علمه شروط المجتهد. وكل مجتهد، سواء أصاب أو أخطأ، مُثاب على اجتهاده. لذلك فكل فتوى وكل رأي يصدران عنه يتبعهما دائماً قول المجتهد «والله أعلم». وبذلك يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً. ونحن نعيش ظروفاً تتطور بسرعة مذهلة تجعل الاجتهاد ضرورة ملحّة.
أيقن السيد محمد حسين فضل الله، طيّب الله ثراه، أن قوة الأمة الإسلامية في وحدتها، وأنّ ضعفها في تفرّقها. أما الاختلاف فهو ضرورة، إذ إنه يشحذ الذهن ويوسّع الآفاق و«لا يفسد في الودّ قضية».
وقد عرف السيد ما كتبه المستشرقون عن الإسلام والمسلمين مما يثير الفتنة بينهم، لكنّني لم أسمعه يوماً يتناول الاستشراق بسوء. ذلك في اعتقادي، لأن بين المستشرقين علماء، بعضهم على الأقل. لذلك فهو يحترم علمهم، وإن أخذ عليهم المآخذ، وهو يحاسبهم على علمهم وليس على نواياهم. كان، قدس الله سره، عفيفاً، نظيف القلب والوجه واليد واللسان. قصدته يوماً لأتزوّد من علمه، حاملاً معي مشروعاً لعلّه يظفر بتأييده. وكان هدف المشروع التعاون على كتابة سلسلة كتب لتدريس التاريخ في المدارس، لأن كتب التاريخ التي تُدرّس تدور حول تاريخ الحروب والصراعات الدموية، وهذه، وإن كانت موجودة في التاريخ، فلا يجوز أن يقتصر التاريخ على تدريسها، أو على جعلها المحور الأساس في علاقة الدول والشعوب. فما كان من السيد بعد عرضي للموضوع، إلا أن استدعى بعض مستشاريه، وطلب إليهم متابعة الأمر. ولم تجر المتابعة لأسباب لا يتّسع المجال هنا لذكرها. لذلك حملت هذا المشروع إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حيث تبلور على يد فريق من الخبراء، فصدر كتاب «التاريخ العربي بلا حدود». غير أنّي ما زلت أتمنى أن تتولى نخبة من المؤرخين كتابة تاريخ حضاري يوحّد بين اللبنانيين في دراسة تاريخهم.
تناول السيد (دام فضله) في محاضراته قضايا العبادات والمعاملات، إن كان في لبنان أو في سوريا، لست مؤهلاً لأبدي الرأي في ما تفضّل به. ولكن ميزته البارزة في نظري، أنّه تناول أيضاً قضايا الحداثة، والمشكلات الأخلاقية التي تشغل الناس. وربما تطرّق الكثيرون من العلماء إلى هذه الأمور، ولكن الجرأة التي تصدّى بها السيد هي ما تلفت الانتباه. فالسيد مرجعية رسمية لقضايا التحرّر والمقاومة وحقوق الإنسان وقضايا الشباب عموماً وأخلاقيات العلوم. ولو كان بيننا لسعينا لتوجيهه في قضايا «الذكاء الاصطناعي» وما تطرحه من مشكلات ترافق التطورات الخطيرة التي نطرحها.
كم نحن بحاجة لأمثال السيد محمد حسين فضل الله اليوم، وكم عظيمة مسؤولية العلماء، في معالجة مشكلات هذا العصر.
نفتقد وجودك بيننا، يا سيد، بحرقة المشتاق، المقدّر لعلمك، والمحبّ لفكرك ولشخصك، وندعو الله عزّ وجل في ذكرى وفاتك أن يعوّض الأمّة بأمثالك، وأن يسكنك جنات النعيم، كثُر الطالب والمطلوب، ولكن الله أكثر، وهو على كل شيء قدير.

13 عاماً على رحيل المرجع السيد محمد حسين فضل الله

مقابلة

اجرتها
فاطمة خشاب درويش

في الذكرى الثالثة عشرة لرحيل المرجع السيد محمد حسين فضل الله أجرت «القوس» مقابلة مع المدير العام لجمعية المبرات الخيرية د. محمد باقر فضل الله، للحديث عن مبادئ العدل والإنصاف في فكر السيد محمد حسين، وكيفية ترجمتها عملياً وتعميمها ونشرها وترسيخها في المجتمع وبين الناس بغضّ النظر عن انتماءاتهم وطوائفهم ومذاهبهم

السيد باقر يتحدث عن شقيقه الراحل

مدرسة الحوار والاعتراف بالآخر

■ حدّثنا عن مرتكزات فكر وعقيدة السيد فضل الله وعن مفهومه للعدل والإنصاف والعدالة الاجتماعية

- تحقيق التوازن والمساواة يكون في التوزيع العادل للثروات والموارد في المجتمع. كما أن العدالة الاجتماعية تتحقق من خلال تبني المجتمع لسياسات وبرامج وقوانين تقلل من التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين أفراد المجتمع وليس العكس. كما توفّر الخدمات الأساسية لجميع أفراد المجتمع بغضّ النظر عن ظروفهم المادية، وذلك من خلال توفير فرص عادلة للتعليم والصحة والعمل والسكن والمشاركة السياسية.

كان السيد فضل الله من رواد العدالة الاجتماعية، إذ لم يقبل الواقع والتقاليد العرفية، بل خرج عليها. ولتحقيق هذه العدالة لا بد أن تتمظهر في فكر منفتح، وهذا ما تجلى في فكر السيد منذ بداية حياته، حيث اقتحم ميادين كان مجرد التفكير فيها يُعدّ تجاوزاً للعرف السائد في الوسط التقليدي. وعندما كان يذهب إلى العراق، وخلال دراسته في سنواته ما قبل العشرين، كان يذهب بنفسه إلى الأماكن الفقيرة والنائية في النجف ليتفقد أحوالها ويساند الفقراء والمحرومين. حمل السيد هموم المستضعفين وحين عاد إلى لبنان وسكن في منطقة النبعة المتنوعة دينياً وطائفياً، وبدأ عمله المؤسسي في جمعية أسرة التآخي الخيرية، أنشأ مستوصفاً مجاوراً للمسجد والمعهد الشرعي، واهتم بموضوع تنظيم الأسرة ومساعدة الفقراء وبنى مدرسة لكنها لم تكتمل بسبب الحرب اللبنانية.

> **تتحقق العدالة من خلال سياسات وبرامج وقوانين تقلل من التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين أفراد المجتمع وليس العكس**

■ ما السبل التي طرحها السيد فضل الله لحل المشكلات بين اللبنانيين إبان الحرب؟

- كان السيد فضل الله يصف الحرب اللبنانية التي بدأت عام 1975 بـ«الحرب المفروضة على لبنان» إذ كان يعتقد أن اللبنانيين لو تُركوا لأمرهم فلن يحتاجوا إلى من يجمعهم. كان يدعو إلى إلغاء خطوط التماس، ليلتقي الناس من دون أي حواجز. فالحرب برأيه ليست سبيلاً لحل المشكلات وأصرّ على البقاء في النبعة، رغم الخراب وكثافة القذائف التي كانت تتساقط من حوله، إذ كان يشعر بالمسؤولية للبقاء فيها والصمود مع الناس. أصدر كتابه «الإسلام ومنطق القوة» على ضوء الشموع آنذاك، ولكن اشتداد الحرب وإصابته بعارض صحي اضطراه إلى الخروج من النبعة والانتقال إلى منطقة شعبية أخرى، إلى حي السلم في الضاحية الجنوبية لبيروت، ثم انتقل إلى مسجد بئر العبد. حوّل السيد فضل الله كل أماكن العبادة التي أمّها إلى مراكز للتلاقي والحوار مع الناس رغم الأوضاع الأمنية الصعبة لم يترك المساجد، سواء في حي السلم، أو بئر العبد.

■ إلى أي مدى ساهم فكر السيد فضل الله في إحداث خرق إيجابي في المجتمع، ولا سيّما نحو تحقيق مشروع العدالة الاجتماعية؟

- جعل السيد فضل الله حقل القضايا الاجتماعية من أولوياته، فكان همّه رعاية الأيتام وحقهم في التعلم والرعاية الصحية وإيجاد البيئة الآمنة لهم في المؤسسات ولأسرهم أيضاً. كما حقوق المعوقين الذين ضاعت بعض مؤسساتهم في أتون الحرب اللبنانية، فالمؤسسات برأيه تشكل مساحة متقدمة لهم يتغلبون فيها على صعوبات الإعاقة، وتوفر حق التعلم والرعاية واختصاصات متعددة، إضافة إلى أن الخدمات الاجتماعية والصحية في المجتمع كانت حاجة ملحة، فأخذت من اهتمامات السيد التي تنوعت بين دينية مرجعية وثقافية مجتمعية إنسانية. لقد حاول السيد تأكيد فكره وقناعاته ورؤاه وتجسيدها على أرض الواقع، خاطب الناس بكل محبة، وتحسّس الآلام ولامس حاجاتهم، وعاش تطلعاتهم وخفّف من معاناتهم.

لم يكن عقل السيد عقلاً مناطقياً ولا طائفياً ولا مذهبياً، بل كان يستوعب كل الناس وكل المحرومين والفقراء والأيتام، لا تحدّ تفكيره أرض ولا أي علاقات قرابة أو علاقات شخصية أو غيرها. كان تفكيره تفكيراً إنسانياً إيمانياً عندما فكّر في أكثر المناطق حرماناً في لبنان. صحيح أنه خطا خطوات عكس التيار الذي كان يهدف إلى بث الحقد والاقتتال بين اللبنانيين، فكان خطابه إنسانياً ينطلق من الإنسان ليصب في الإنسانية وبناء الإنسان وإنسانية الإنسان وعدم الفصل بين الإسلام والإنسان. ولذلك عُرف السيد بجملته الشهيرة «الحقيقة بنت الحوار»، وعدّ التحاور تلاقحاً معرفياً يغني الفكر ويقرّب المسافات ويقود إلى ترسيخ القناعات أو التخلي عنها عند الاقتناع بحجة الطرف الآخر، فكان يقول: «من حق كل شخص أن يكون له وجهة نظر وتحصيل الرأي الأفضل يكون عن طريق التفاهم، وتقديم الأدلة الداعمة لوجهة نظره»، ويؤكد من خلال تجربته «أنه لا يمكن أن يحرك الإنسان شيء مثل الحوار». لذلك، فإننا نعدّ أن السيد تجاوز تحقيق العدالة الاجتماعية في لبنان ببناء المؤسسات التي تنوّعت تربوياً ورعائياً وصحياً واجتماعياً، إلى خرق إيجابي آخر للمجتمع اللبناني بطرح عدالة اجتماعية على صعيد الحوار مع الآخر والاعتراف بالآخر للانفتاح عليه ومناقشته وحواره على قاعدة الآية القرآنية «وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين». العدالة الاجتماعية التي توفر احترام رأي الإنسان للإنسان الآخر بما كان يمثله من قيمة إسلامية أساسية.

> **لم يكن عقله عقلاً مناطقياً ولا طائفياً ولا مذهبياً**

■ كيف ترجم السيد فضل الله مفهومه للعدالة الاجتماعية من خلال حركته ومؤسساته؟

- كان السيد يرى أن إنشاء المؤسسات يحوّل مفهوم العدالة الاجتماعية من معنى مجرد إلى معطيات محسوسة ويحوّل قيمة الأفراد إلى قيمة اجتماعية وإنسانية، وهذا يستدعي مساحات ومسافات ينبغي تعبيدها وتأمين الإمكانات وإزالة العقبات التي تعترض طريقها، فمن جمعية أسرة التآخي الخيرية في النبعة إلى جمعية المبرات الخيرية التي كان يراها السيد وسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية لمشكلات اليتم والفقر، والتعليم، والبطالة والإعاقة، وضيق الأفق وهجرة الأدمغة وسائر القضايا الاجتماعية. وذلك ببناء مؤسسات تساهم في تحقيق العدالة الاجتماعية، تبني القدرات والكفاءات، وتواكب الغرب في علومه، الأمر الذي يساعد في رفض الانصياع للواقع المفروض قهراً.

أراد السيد لجمعية المبرات الخيرية أن تحاكي فكره، لا أن تكون مجرد مياتم تقليدية بل جمعية مرحبة تتحرك لتؤكد تفوّق إنساننا، كما كان يقول السيد «القلب مفتوح والبيت مفتوح»، إذ تفتح أبوابها أمام كل من يطلب خدمة، مؤكداً أنها ليست جمعية طائفية، ولا تربي الإنسان على أن ينغلق على طائفته بل تربيه على الانفتاح على الطوائف الأخرى، وعلى الإنسان الآخر، وعلى الوطن كله. فانطلقت المبرات من تفكير السيد الإيماني بأكثر المناطق حرماناً في لبنان، من بيروت إلى البقاع فالجنوب ثم جبيل وطرابلس.

■ هل يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية اليوم في ظل الواقع الصعب في مؤسسات الدولة؟

- كيف السبيل إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وزرع مفاهيم هذه العدالة كقيمة إنسانية في وعي الجيل الجديد، ونحن نعيش في وطن استشرى فيه الفساد، الذي سيترك آثاره على جيل نعمل على تربيته ورعايته وتعليمه؟ نحن في عصر تتبدل فيه القيم، ولكننا نسعى لنجترح الأساليب المتنوعة لنزرع الوعي في عقول أبنائنا عن الفساد الأخلاقي الذي هو سبب هلاك الأمة، بما يمثله من الفساد التعليمي والإعلامي، وكذلك الفساد الاقتصادي الذي نعاني منه في كل يوم داخل المؤسسات مهدداً استمراريتها.

إن تعطيل مؤسسات الدولة يشكل تحدياً لاستمرار المؤسسات الاجتماعية، ولكننا لن نجعل اليأس والإحباط يشعرانا بالهم، ولن نسمح أن يقودنا ذلك إلى فقدان الثقة بالله، خاصة أن المبرات تحظى بثقة عدد من أهل الخير في لبنان وخارجه لتستمر في عطاءاتها الإنسانية.

■ هل تستطيع «المبرات» الاستمرار في خدماتها رغم الوضع الاقتصادي الصعب؟

- إن جمعية المبرات الخيرية ومؤسسات المرحوم فضل الله، حضنت منذ تأسيسها حتى اليوم 85145 يتيماً و11764 تلميذاً من ذوي الاحتياجات الخاصة، وتحتضن 300 مسنّ داخلها و865 مسنّاً خارجها، لن تتخلى اليوم عن مسؤولياتها، ستبقى مسؤولة عن الحالات المأساوية للأيتام والمسنين والمعوقين في المجتمع، لأنها جزء من هذا المجتمع حتى لو كانت الدولة تساهم بما لا يسمن ولا يغني من جوع. كما لن نتخلى عن مسؤولياتنا في رفع مستوى التعليم للمستفيدين في مدارس ومعاهد المبرات الذين تجاوز عددهم الأربعة وعشرين ألفاً العام الماضي، ننتظر أعداداً أكبر للعام القادم، وذلك بأقساط لا تسد الكلفة مستعينين بمؤسسات المبرات الإنتاجية لسد العجز المادي المتراكم.

اسرة التآخي في النبعة

رأي

زرته من دون مراجعة عرّاب توزيري

إبراهيم نجار *

كانت لرجال دين من المذهب الشيعي إطلالة عابرة للطوائف اللبنانية منذ أكثر من ثلاثة عقود: أصحاب السماحة الإمام موسى الصدر، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، والعلّامة المرجع محمد حسين فضل الله. كلٌ منهم، على طريقته وبانفتاحه وفصاحته أوحى بأنّ لبنان العيش الواحد مشروع ممكن، ويؤدي إلى بناء دولة مؤسسات والتوجه معاً إلى المواطنة الحقيقية.

ولعل أبرز أصحاب السماحة المذكورين قامة فكرية، وأكثرهم غزارة في الكتابة وأعمال البر والإحسان كان العلّامة محمد حسين فضل الله، فقد ترك انطباعاً لمن لم يتعرف إليه عن كثب. لم يلقَ لدى بقية الطوائف ما استحقه من إكبار وإجلال وتقدير، مع أنه كان، بلكنته العراقية وصوته الحنون المميزين، متصدّراً دائماً الرموز الشيعية الوطنية الجامعة.

زارني ذات يوم من العام 2008، في منزلي، الوزير السابق عدنان السيد حسين، واقترح عليّ أن أزور السيد فضل الله. قبلتُ فوراً، مع أنه كان عليّ أن أتوجه إلى الضاحية الجنوبية التي لم أزرها منذ الستينيات. لم أراجع من كان عرّاب توزيري، ولم أطلب حماية خصوصية غير تلك المخصصة لوزير عدل منكبّ على إكمال تسيير أعمال المحكمة الخاصة بلبنان.

ما إن تحدد الموعد حتى انطلقنا، رغم تساؤلات عائلتي، باتجاه الضاحية، وسلكنا طرقات بدت لي متعرّجة وضيّقة ومستحدثة. كنتُ فرحاً وتوّاقاً للقاء مرجع استثنائي وللاستماع إليه، فأستجيب لفضولي، وأشاركه طموحي الحميم للبنان السلام والأخوّة والحضارة والثقافة والانفتاح.

لم أعرف كيف وصلنا إلى مقر ولي «دار المبرّات». لكنني أتذكر تماماً أن ابن العلّامة استوقفني قبل ولوجي مكتب والده ونبّهني قائلاً: «اعذرني ولكن الوالد لا يستطيع الاستقبال لأكثر من نصف ساعة، لأسباب صحية محضة». بالطبع، تفهّمتُ هذا الواقع.

دخلتُ على العلّامة. وجدته شبيهاً تماماً بالصورة التي يوحي بها: قامةٌ مديدة، ألفاظٌ معجونة بالعبارات المختارة، نظراتٌ ثاقبة وقلبٌ يتسّع لمحيط من الود والمحبة. لم أعد أذكر تفاصيل ما كان يود العلّامة الإفصاح عنه، لأنني كنتُ مأخوذاً بانفتاحه وعلمه. فقد أشاد بزعماء غير مسلمين على نحو فاجأني، لدرجة أنني تساءلتُ عن مدى التأثير الذي يولّده القائد من دون أن يعرف مداه وعمقه في نفس الآخرين. كما شرح نواحي متعددة من التعاليم والفتاوى بطريقة تجعلك تحتقر العصبية الدينية والمذهبية. فانتصبَ ما سمعته على إبراز حضارة المعتقدات الشيعية، وحيوية الدعوات السيادية، والتقدير الكامل لنضال كل من كميل شمعون وفؤاد شهاب وبيار الجميل وريمون إده، ومواقفهم الاستقلالية وتوقهم لبناء دولة.

أعترفُ بتواضع كليّ أنني لم أستطع تقديم إضافات كثيرة لما كان يريد سماحته إفهامي إيّاه، وكأنه قرر تخصيص اللقاء، للإفصاح عمّا يكمن في قلبه وفكره وخواطره، فأقفُ على حقيقة تراث علماء الدين في جبل عامل.

عند خروجي بعد الدقيقة الثلاثين المحددة لي، حمّلني ابن سماحته كمية من الكتب بلغ عددها 21 كتاباً، قائلاً: «هذه هدية من الوالد، عسى أن تجد في طيّاتها ما يمدد لفرح هذا اللقاء».

توفي الله العلّامة المرجع في الرابع من تموز 2010 ولم يكن قد جاوز الرابعة والسبعين، تاركاً عدداً مذهلاً من المؤسسات الرعائية والمراكز الصحية والمعاهد والمدارس والمؤسسات الخيّرة والمؤلفات. فقرّرتُ أنّ أضعف الإيمان يفرض عليّ تقديم واجب العزاء؛ فطلبتُ من نواب القوّات اللبنانية مرافقتي إلى الضاحية حيث قدمنا التعازي بكل خشوع.

وبقيت حسرةٌ في قلبي، لأننا لم نقدم للعلّامة المرجع كل ما يستحقه من تعظيم وإكرام في بلادنا المتعبّدة والمفتتة والمتسكعة على رصيف الانغلاق على الطائفية، وعلى النفس.

* **بروفوسور في جامعة القديس يوسف، وزير عدل سابق**

مجتمع ذكوري يضطهد المرأة

«منذ لقائي بالإنسان في مشكلاته وقضاياه، شعرت بأن المجتمع هو مجتمع ذكوري، وأنه يضطهد فعلاً المرأة بفكره، بتصنيفها كإنسان من الدرجة الثانية، واكتشفت أن الإسلام الذي تشرّبته يريد للمرأة أن تكون إنساناً حقاً، ويريد الرجل أن يشعر بإنسانيتها هذه، وأن يتكامل معها في إنسانيته» يقول السيد في موسوعة الفكر الإسلامي، المجلد السابع، الذي توقّف فيه عند قضايا المرأة، وأورد فيه تفاصيل عن المرأة الإنسان، والمرأة الزوجة والإرث والحجاب، وحقوق المرأة، وعرض فتاوى تتعلّق بمسائل اجتماعية في حياة المرأة.

يؤمن السيد بأن المرأة إنسان كامل الإنسانية، كما الرجل، ويريد للمرأة أن تشارك في الثقافة والعلم وكذلك في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، مع الحفاظ على الجانب الأخلاقي القيمي.

يرى السيد أن قيمة المرأة في حركة المجتمع ليست في أن تكون جسداً، بل أن تشارك في عملية النمو الاجتماعي والثقافي والسياسي كما الرجل ليتكاملا معاً في عملية صنع الحياة.. ويدعو السيد المرأة بكل جرأة إلى التمرد على الثقافة التي تريد أن تجعل من جسدها عاملاً لاجتذاب الآخر، كما يدعوها إلى أن تنهض بعقلها من أجل تنمية ثقافتها حتى يكون عقلها منتجاً للعلم والمعرفة.

هناك من رأى أن السيد غالى في انحيازه إلى المرأة، وكان ردّه: «أنا مع المظلوم، سواء أكان امرأة أم رجلاً».

وبشأن حقوق المرأة، كما يراها السيد فضل الله، نعرض في ما يلي أبرز الفتاوى الخاصة بها:

● حرية المرأة كحرية الرجل، تتبع حدود التشريع الذي كلّف الله سبحانه به كلاً منهما، كما تتبع حدود القيمة الأخلاقية التي يجعلها الإنسان محدودة لممارسته الإنسانية في جوانب مختلفة من الحياة.

● المرأة كانن مستقل.. ليس هناك سلطة عليها من قبل أخيها أو أبيها أو أي إنسان في أوضاع حياتها.

● هناك قيود في حياتها الزوجية يسودها التعاقد والقانون، تماماً كأيّ قيود أخرى بين متعاقدين، هذا التعاقد لا ينطلق من شيء متحجّر جامد وإنما من خلال المودة والرحمة.

● للمرأة أن تأخذ بأسباب القوة، فلا مشكلة شرعية في أن تأخذ بالفنون الرياضية المختلفة، لأن هناك من يستضعف المرأة ويعتدي عليها، ما يفرض على المرأة أن تكون قوية جسدياً مع احتفاظها بأخلاقية القوة وإنسانية الموقف، فالقوة لا تعني العدوانية، بل المسؤولية.

● لا مانع في الإسلام من تنظيم النسل، أي الامتناع عن الإنجاب في بداية الزواج، لأن ذلك ليس محرّماً من الناحية الشرعية إذا كان عبر الوسائل المشروعة.

● تعطى المرأة حق الطلاق إذا اشترطت على الزوج أن تكون وكيلة عنه في طلاق نفسها، فلها أن تطلق نفسها بحسب الشروط التي تتضمنها وكالة الطلاق.

● إذا لم يقم الزوج بتأدية ما لها عليه من حقوق، إن لم ينفق عليها أو لم يؤدّ لها الحق الجنسي الذي تحتاجه، أو تعسّف أضرّ بها بممارسة العنف معها، فإنّ كل ذلك يجعل لها الحق بأن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي، فيطلقها إذا طلبت الطلاق.

● إن للبنت التي لم تتزوج حقوقاً كبيرة على أهلها، عليهم أن يعملوا من أجل أن تعيش حياتها كإنسانة سويّة.

> **إن قوامة الرجل على المرأة لا تعني سيادته عليها**

● مفهوم أن المرأة ضعيفة الفكر هو مفهوم جاهلي، لا بدّ لنا أن نقوم بتوعية الناس لجعلهم يبتعدون عنه.

● على المرأة أن تتعلم، ليس فقط بدخول المدارس والجامعات، بل بكلّ ما يؤمّن لها ثقافة واعية.

● من حق المرأة الواعية المثقفة المتعلمة أن تشارك في العمل السياسي في شتى المجالات.

● لا مانع من ممارسة المرأة لمهنة المحاماة وكذلك العمل في القضاء، إذا كان ذلك للدفاع عن الحق لا عن الباطل.

● لا فرق بين الرجل والمرأة في الاجتهاد والفقه، يمكن للمرأة أن تتصدى للمرجعية والتقليد، لأنه يجوز للمرأة أن تكشف وجهها وكفّيها، ولا مانع من أن تتحدث مع الرجال.

● لا ولاية لأحد على المرأة إذا كانت بالغة رشيدة مستقلة في إدارة شؤونها، فليس لأحد أن يفرض عليها زوجاً لا تريده، والعقد دون رضاها باطل لا أثر له.

● تملك المرأة مالها ملكاً مطلقاً، وليس للزوج أو الأخ سلطة على مالها إذا كانت بالغة رشيدة.

● إن قوامة الرجل على المرأة لا تعني سيادة الرجل عليها، بل تعني تحميل الرجل مسؤولية إدارة الأسرة التي لا بد أن لا يستبد بها، وأن يتشارك مع زوجته في إدارتها.

● للمرأة الحق في التمتع الجنسي في العلاقة الشرعية بينها وبين الرجل.

● إذا مارس الرجل العنف الجسدي ضد المرأة، ولم تستطع الدفاع عن نفسها إلا بأن تبادل عنفه بعنف مثله، فيجوز لها ذلك من باب الدفاع عن النفس.

● لا ولاية لأحد على المرأة إذا كانت

فاطمة خ. د.

13 عاماً على رحيل المرجع السيد محمد حسين فضل الله

الهُويّة باباً إلى الغيريّة لا سجناً لها

* الأب باسم الراعي *

لا يوضع السيّد محمد حسين فضل الله خارج السياق التاريخيّ الذي أتى فيه فكره، إذا كنّا نريد حقّاً فهمه، في وقتٍ كان لبنان وفلسطين والعالم العربيّ يمرّون في مخاضاتٍ وتحوّلات كبيرة سياسيّة ومجتمعيّة وحتى دينيّة. لذلك عكف في الليالي وعلى ضوء الشموع في المآجئ على العمل على همٍّ مزدوج: التوفيق بين الحوار في التواصل مع الآخر المختلف والعيش معه وبين متطلّبات المرحلة في المجال الإسلاميّ. انعكس هذا الهمّ في كتابيه «الحوار في القرآن» و«الحركة الإسلاميّة هموم وقضايا»، من ينظر في مشروع الكتابين يقف على حقيقة التحدّي الذي فرضته المرحلة والخيارات التي كانت تشدّ بالسيّد يوماً بعد يوم. لكن مع تقدّم سِني الحرب والتحدّيات التي عرفها على صعيده الشخصيّ، تبلورت لديه حقيقة الحوار أكثر، إذ اختبر كما يقول الفيلسوف غبرييل مارسيل تحدّي المفاجئ الذي يدهم الوجود، والذي تمثّل بإشكاليّة نفي الغيريّة.

في هذا الجو بدأت محوريّة الآخر تتكشّف لديه من منطلق النصّ الدينيّ أي من الوحي المقيم للغيريّة وجوباً كتعهّد، محوريّة الآيتين لديه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) «الحجرات: 13»، و(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) «آل عمران: 64». ومن ثم غيريّة تخصّ الفرد مقاومة للإلغاء، محوريّة الآيتين لديه: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) «الإسراء: 85»، و(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) «فاطر: 18». سار السيّد في خيار محوريّة الآخر، فاتت الغيريّة متصلة بفهمه للحوار، حيث الحقائق والأفكار السامية والمحقّة لا تُفرض فرضاً، بل تَفرض ذاتها.

يتّضح معنى هذا الخيار عيشاً مما نقله السيّد هاني فحص عمّا جمعه بالسيّد: «أحببت فيه عمله ودبمقراطيّته المركزيّة أو مركزيّته الديمقراطيّة على غير نموذج الأحزاب المركزيّة التي تدّعي الديمقراطيّة في إدارة المؤسّسات وهي شديدة المركزيّة. وكنت أتورّط في نقده فكرياً وعملياً وسياسياً في حدود، وفي حضوره.. ولا يزعل. وأنقده في حضور محبّيه بقوّة أو قسوة أحياناً ولا يصلني منه إلّا عتابٌ قليل. أمّا أمام كارهيه فقد تورّطت بما جلب لي خطراً وعقاباً».

الآخر في غيريته هذا هو العنوان الذي دافع عنه السيّد فضل الله بمفهومه الحواريّ الحياتيّ.

تُحفظُ هذه الغيريّة في الإطار الحواريّ على أساس أن الحوار غير الجدل الذي يحمل «معنى الصراع» في حين أنّ الحوار يتّسع «له ولغيره» لأنّه يتصل بالحياة، و«الحياة كلّها تتحاور ولكن بصمت، وقد نجد هناك حواراً لا نفهمه ولكنّنا نحسّه [..] نتعلّم منها كيف نستطيع أن نتكامل وأن نتوازن».

من هذا المنطلق يكون الحوار المتّصل بالحياة قيمةً تنبثق من حقيقة أن الحياة تمثّل تفاعلاً حيوياً يساهم إذا عاشه المرء في كسر «الجمود الفكريّ والروحيّ والثقافيّ الذي يمثّله الاستغراق في الذات أو في الانتماء أو التقليد، ليتحوّل الإنسان إلى حالةٍ متحجّرة جامدةٍ لا تملك أيّ حيويّة، أو حركيّة في اتجاه احتمالات التفكير بالآخر، أو إمكانات التغيير والانتقال، في المستوى الثقافيّ، من موقع إلى موقع، ومن انتماءٍ إلى انتماء». والدخول في هذه الحركيّة، يعني أيضاً أنّ التحدّيات والهواجس وغيرها تأخذ بعداً واقعياً مكوّناً من «أوضاع تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة».

بهذا يصير الحوار فرصةً للعمل على هذه الأوضاع ومناسبةً لوحدة تجمع النظريّ والواقعيّ في قلب التعدديّة، «فلا يبقى الإنسان» في ازدواجيّة تجعله يتحرك بين الشيء ونقيضه» ولا منعزلاً، بل يترك الفكر يحرّك ويحدّد مجالات الالتزام. هكذا يصير الآخر المختلف شريكاً حراً ومتفاعلاً، والحوار وسيلةً صادقة، إذ إنّ ما «لا أرضى بما تفكّر ولا ترضى بما أفكّر [..] لا تكون حالةً [..] عدوانيّة [بل] مسألةً واقعيّةً عمليّةً [..] تنطلق لتطرح فكرك بكلّ عناصره ولتعرف كيف تهندس الطريق إلى عقلي وأعرف كيف أهندس الطريق إلى عقلك».

يكتمل هذا المعنى للحوار في البعد الحياتيّ، فلا يكون في جنس الملائكة أو لغواً، بل تكوينياً لمسؤوليّةٍ مشتركة، وزّع السيّد مضامينها على مستويات ثلاثة:

المستوى الدينيّ: الدين قيمٌ تعاش، لا مجرّد عقائد تطاع. إنّه دين الإنسان وللإنسان، من منطلق قيم مشتركة، ذلك أنّ «القيم الروحيّة والأخلاقيّة ليست مُجرّد عناوين سحريّة في عالم الفكر والمثال، بل هي عناوين واقعيّة تدفع الإنسان إلى الدفاع عن الضعفاء والمحرومين والمُشرّدين والمظلومين وإلى الاستشهاد في سبيلهم بالمستوى الذي يجعل ذلك شهادة في سبيل الله». هذا الموقف يعيد الروحيّة إلى الدين ويحرّره من الطائفيّة التي هي عشائريّة متسرّة في الدين.

المستوى الاجتماعيّ، المرتبط بالمستوى الديني، إذ يصير الدين عندها: «مُثقّفاً، مُفكّراً، واعياً [..] فكراً ارتاه الإنسان] وإيماناً التزمه في مقابل فكر ارتاه الآخر وإيمان التزمه الآخر أفيكون الدين] قضيّة فكر وفكر لا قضيّة غريزةٍ وغريزةٍ فيما هي قضيّة طائفةٍ وطائفة».

المستوى السياسيّ، يجمع فيه السيّد حصيلة تفكيره السابق، حيث إنّ السياسة هي مصبّ الحوار الحقيقيّ، لأنّها تعمل على واقعيّة هي الإنسان في واقعه الواقعيّ. هنا يحضر مفهوم «دولة الإنسان» التي يقول فيها: «من الممكن جدّاً للبنانيّين أن يثيروا مسألة النظام المستقلّ على أساس إنسانيّة الإنسان اللبنانيّ ولا أريد أن أضيف تعبيرات أخرى [..] عندما ندعو إلى دولة الإنسان في لبنان فلكي يتحرك اللبنانيّ بإنسانيّته [..] ليفكّر بشكلٍ مطلق».

هكذا ترجم السيّد إيمانه في الآخر بالتمسك بغيريته، مع عدم التنازل عن هُوّيته أو المساومة عليها، جاعلاً هُوّيته باباً إلى الغيريّة، لا سجناً لها أو مُقيداً لها أو مُهلكة لها.

بدأت محوريّة الآخر تتكشّف لديه من منطلق النصّ الديني أي من الوحي المقيم للغيريّة وجوباً كتعهّد

* خادم رعية القدّيسة تقلا في شامات، وأستاذ مادّة الفلسفة في عدد من الجامعات والمعاهد

المراجع:

- السيد محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، مكتبة الشهيد الصدر، 1982م، ص 18 - 20.

- محاضرةٌ ألقاها العلامة فضل الله في كليّة الآداب الإنسانيّة، البقاع، بتاريخ 1994/5/5، ص 2 - 4.

- السيّد محمد حسين فضل الله، في آفاق الحوار الإسلاميّ - المسيحيّ، ط 1994، دار الملاك، المقدمة، ص 8-13، 80-81، 95 - 96 و227-228 و243.

- العلامة محمد حسين فضل الله، من أجل الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، 1989، ص 547 - 548.

القضية المركزية

ملف خاص

تأييد واسع لعملية محمد صلاح البطولية

السعوديون متمسكون بحقوق الشعب الفلسطيني

«إن العقبة الكبرى امام توسيع السلام لا تعود إلى قادة الدول حولنا، وإنما إلى الراي العام السائد في الشارع العربي». في كلمة القاها رئيس وزراء العدو الإسرائيلي بنيامين نتنياهو عام 2017، بمناسبة ذكرى زيارة الرئيس السابق محمد انور السادات للكيان الإسرائيلي، لخّص فيها مصير اتفاقياته وآماله البعيدة المنال. ورغم تطبيع بعض الدول العربية مع كيان العدو الإسرائيلي، وآخرها اتفاقية إبراهام التي شملت دولة الإمارات العربية المتحدة والبحرين، لا تزال القضية الفلسطينية حاضرة عند الشعوب العربية رغم التضييق الذي تمارسه بعض الدول المطبّعة. والدليل على ذلك، ما شهدناه مع العملية التي نفّذها الجندي المصري محمد صلاح الذي عبر ببندقيته معبر العوجة عند الحدود المصرية - الفلسطينية ليقتل ثلاثة من جنود العدو المحتل.. بعد 45 عاماً على اتفاقية كامب ديفيد

أحمد مدلج

«أمل توقيع اتفاق سلام مع السعودية (..) إذ نملك فرصةً رائعة لتعزيز السلام في منطقتنا. لقد حققنا بالفعل منعطفاً تاريخياً من خلال التوقيع على الاتفاقيات الإبراهيمية، وبالطبع الاتفاق مع السعودية سيُعَدّ نقلة نوعية (..) وبالتالي مثل هذا الاتفاق قد يرسم الطريق لإنهاء الصراع العربي - الإسرائيلي. ليس ذلك فحسب، بل سيسهم في إيجاد حل للقضية الفلسطينية». من حديث لرئيس وزراء العدو الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في مقابلة أجراها مع شبكة سكاي نيوز بتاريخ 2023/6/9. لا يكاد يمر يوم من دون تصريحات صادرة عن رئيس وزراء العدو أو حتى عن وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن حول مساعي إبرام اتفاقية سلام بين العدو الإسرائيلي والسعودية (حيث أشار بلينكن إلى ذلك مرتين خلال ثلاثة أيام) الأولى بتاريخ 2023/6/5 والثانية خلال مؤتمر صحافي مشترك في الرياض مع وزير الخارجية السعودي بتاريخ 2023/6/8. يظن العدوّ أن هذه الاتفاقية سيقابلها الشعب السعودي بأذرع مفتوحة. لكن ما نشهده على أرض الواقع يؤكد تمسّك الشعوب العربية بالقضية الفلسطينية، ومن ضمنهم السعوديون.

ولعل أبرز تجلّ ظهر خلاله موقف الشعوب العربية من العدو هو كأس العالم لكرة القدم 2022 التي أقيمت في دولة قطر، حيث قاطع عدد من المشجّعين من مختلف البلدان العربية مراسل العدوّ الإسرائيلي، ورفض أحد المشجعين السعوديين إجراء مقابلة معه، مؤكداً أن المراسل «غير مرحّب به هنا».

التطبيع كان وسيطه مرفوضاً

يتحدث فيصل ابن مدينة نجد مع «القوس» عن استغرابه لوجود شكوك حول عدم التمسك بالقضية الفلسطينية من قبل الشعب السعودي. ويشدد على أن «التطبيع سيبقى مرفوضاً». ويضيف: «لا تزال الصورة التي تربّينا عليها تتوارث؛ ألا وهي نبذ الاحتلال والمستوطنين، ونبذ المطبّع من الشعب. يمكن أن يُلاحظ ذلك، وفق فيصل، في أبسط الأشياء «من الحوارات إلى المزاح والنكت حول من لديه كراهية أكثر للكيان المحتل». يستذكر حادثة عالقة في ذهنه خلال معرض الكتاب في الرياض عام 2022 حيث كان الإقبال كبيراً على كتب غسان كنفاني «وأغلب الناس الذين كانوا يشترونها شباب باعمار صغيرة». وبعد كل عملية فدائية في فلسطين المحتلة «جبتي توزع علينا حلويات عندما نبلغها بالخبر».

التمسك بالقضية رغم كل شيء

أمل، من سكان القطيف، تصرّ على توافق أهل الجزيرة العربية على أن التطبيع لا يمثلهم ولا يعبّر عمّا يفكّر به أهل السعودية، وهو اعتداء على تاريخهم في الدفاع عن القضية الفلسطينية ومقدساتها. وتقول إن «الإجماع الشعبي الوطني متمسّك بفلسطين، وكل شبر فيها يعبّر عن موقف الشعب الحقيقي والثابت، وإن استمرار هذه الجريمة يجعل من النظام معزولاً ومخالفاً لإرادة الشعب وقراره الراسخ». تلفت أمل إلى أن شعب الجزيرة لا يزال يرفع صوته عالياً في المنابر والمناسبات الدينية وكل محفل يمكنه ذكر فلسطين «رغم المنع والتضييق والقمع، واستخدام الإرهاب الرسمي، وتغييب الإعلام وحجبه عن نقل الصورة الحقيقية والواقعية وتزييف الوعي الشعبي عن القضية الفلسطينية، فهذا النظام لطالما سعى إلى تصوير الشعب بأنه تابع للحكومة وراضٍ عن قراراتها ومتعايش مع فكرة السلام الذي يريده العدو الصهيوني». توضح أمل أن هناك اختلافاً بين الحاكم والمحكوم، فمهما طبّعت السلطات الحاكمة وحاولت أن تفرض التطبيع مع العدو على الشعب المحكوم، يرفض كثيرون فكرة التطبيع رفضاً قاطعاً، «مثال على ذلك، خالد العمير الذي تظاهر وحيداً ضد الحرب على غزة، ليعتقل بعدها ويكون عميد المعتقلين». كان العمير قد صرّح بأن «السجن أحبُّ لي من أن أرى تلك الدماء التي سالت على أيدي الصهاينة المجرمين». وتضيف أمل بأن محمد الربيعة لاقى المصير نفسه، إذ اعتُقل لدعمه فلسطين، «ربيعة الذي دائماً ما يردّد أن فلسطين هي مركز تتشكل عليه وحوله خياراتك في المنطقة والعالم، ومن دون دعمها لا يمكن بناء استراتيجية أمن قومي مستقلة». ووفقاً لأمل ورغم جميع «محاولات النظام تكميم أفواه الشعب وجعلها غير مبالية لما يجري في فلسطين، سيبقى شعب الجزيرة العربية داعماً لهذه القضية».

75%
من الشعب السعودي يرفض التطبيع

يشير استطلاع أخير أجراه معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (The Washington Institute For Near East Policy) صادر في آذار 2022 إلى انخفاض الدعم الشعبي لاتفاقية إبراهام في الخليج. لا يقتصر تراجع النظرة الإيجابية حول اتفاقية السلام مع العدو الإسرائيلي على الشعب السعودي فقط، بل أظهر الاستطلاع أن نظرة الشعب البحريني والإماراتي السلبية حول الاتفاقية ارتفعت أيضاً، ليصبح عدد المؤيدين للاتفاقية بحسب الدراسة «أقلية». إذ تبلغ نسبة الرافضين للتطبيع من الشعب السعودي 75%، بينما تبلغ نسبة المؤيدين منهم 19%.

قلة قليلة لا تمثلنا

«لم يكن التطبيع مع الكيان الصهيوني موضوعاً قابلاً للنقاش قط في محيطي» تقول ياسمين لـ«القوس»، وهي من سكان نجد. فالتطبيع أمر مرفوض في أوساط عائلتها وأصدقائها. ولم يكن التطرق إليه في الأحاديث والتجمعات إلا تأكيداً على رفضه. تضيف ياسمين إن رفض التطبيع يكاد يكون الموضوع الوحيد الذي يتفق عليه الجميع باختلاف

جدّتي في نجد توزع علينا الحلويات بعد كل عملية فدائية في فلسطين المحتلة

المرجعيات والقناعات السياسية والاجتماعية وسط الدائرة الواحدة. «اعتدنا على أن موقفنا من القضية الفلسطينية ومركزيتها هو الجامع الأول وإن اختلفت تأويلاتنا لمختلف القضايا السياسية والإنسانية». تشدد الشابة الثلاثينية على أنه «رغم تعالي أصوات قلة تنادي بالتطبيع أخيراً، فإن التمسك بموقفنا ضده يظهر بشدة ويتجلى لدى الأجيال التي تصغرني سناً برغم ابتعادهم عن الانغماس في السياسة». إلا أنها تلاحظ حماسة وإصراراً على تبني القضية، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر برفض التطبيع الثقافي ومقاطعة الأعمال الفنية التي تكون للعدوّ صلة بها بشكل أو بآخر. تخلص ياسمين الى أن «الموقف الرافض للتطبيع لا يزال هو الموقف السائد للأغلبية، والقلّة التي تدعو له ما هي إلا أصوات لا نكاد نراها إلا على مواقع التواصل الاجتماعي، بينما الواقع الذي أعيشه يثبت خلاف ذلك».

عن أيّ سلام تتكلمون؟

في مقال نُشر سابقاً (راجع «القوس»، 22 نيسان 2022، «سلام بلا عدل: مزيد من القتل») تناول عدد الشهداء والجرحى الفلسطينيين بعد توقيع كل اتفاقية سلام. ولعل من المفيد إعادة نشر هذه الأرقام للتذكير بالنتائج الدموية لتلك الاتفاقيات، ومدى ضعف مزاعم الاحتلال عن أن اتفاقية السلام ستؤدي إلى الاستقرار.

لا يمكن لكلمة «سلام» أن تجتمع مع العدو الصهيوني، الذي لا يترك فرصة إلا ويؤكد فيها أحقيته بالأراضي العربية لبناء دولة إسرائيل الكبرى وتوسيع مطامعه الاستعمارية.

فبعد كل اتفاقية سلام عربية مع العدو الإسرائيلي، تزداد جرائم الإسرائيليين بحق فلسطين وشعبها. بعد توقيع اتفاقية «كامب ديفيد» عام 1978، ازدادت همجية سلطة الاحتلال، ليسقط ما لا يقل عن ألفي شهيد فلسطيني، بينهم حوالي 241 طفلاً، ونحو 90 ألف جريح ومصاب، و75 ألف معتقل، فضلاً عن تدمير 1,228 منزلاً.

بعد توقيع اتفاقية «أوسلو» عام 1993، لم تنتهِ الاعتداءات، بل على العكس كثرت المواجهات المسلحة وتصاعدت وتيرة الأعمال العسكرية واستشهد حوالي 7000 فلسطيني، وبلغ عدد الجرحى نحو 50 ألفاً.

بعد توقيع اتفاقيات «إبراهام» عام 2020، خلال الأشهر الثمانية الأولى من عام 2021، هدمت سلطات الاحتلال الإسرائيلي 666 منزلاً فلسطينياً ومباني أخرى في الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، ما أدى إلى نزوح 958 شخصاً، بزيادة قدرها 38% مقارنة بالفترة نفسها من عام 2020. كما قصف العدو حوالي 1500 هدف في قطاع غزة، ما أدى إلى استشهاد ما لا يقل عن 260 فلسطينياً، من بينهم 66 طفلاً، وجرح 2200.

أيّ اتفاقية «سلام» بين العدوّ الإسرائيلي والسعودية أو مع أيّ بلد عربي آخر تعني شيئاً واحداً فقط، المزيد من المجازر والهدم وتوسيع الاستيطان. فلا يطمح العدو الإسرائيلي إلى تحقيق سلام عبر اتفاقياته، كما يدّعي، بل إلى استعمال الاتفاقية كغطاء لاستمراره في ممارسة شتّى أنواع جرائم الإبادة بحق الشعب الفلسطيني. هذه الاتفاقية، إن حصلت، لن تغيّر شيئاً من موقف الشعوب العربية تجاه القضية، ولن توقف الشعب الفلسطيني عن مقاومته.

مظاهرة في باحات المسجد الأقصى ضد محاولات الإجلاء القسري لسكان حي الشيخ جراح (رويترز)

القوس
السبت 8 تموز 2023 العدد 71

محطات بارزة في حياة العلّامة المرجع

1935

ولد السيد في النجف الأشرف في العراق، في أسرة علميّة معروفة بالعلم والأدب، يعود نسبها إلى الإمام الحسن بن علي

الدراسة

بدأ دراسته الدينية في سن العاشرة وتتلمذ على أيدي كبار أساتذة الحوزة العلمية في النجف الأشرف

1966

انفتح السيد على واقع الأمة الإسلامية باكراً واطّلع على الأجواء الفكرية والأدبية والسياسية عن طريق الصحافة العربية

عاد إلى لبنان مجتهداً. لمس هموم الفقراء والمحتاجين وعمل على توعيتهم وتثقيفهم ومساعدتهم

أسس حوزة المعهد الشرعي الإسلامي التي خرّجت العديد من العلماء ورجال الدين

أسّس حوزة الرتخى ومكتباً مرجعياً في منطقة السيدة زينب في سوريا شكّلت قاعدة للانفتاح والتواصل مع شرائح متنوعة، كما ألقى فيها دروس الخارج في الفقه وأصوله على طلاب العلم في العراق وسوريا وبعض دول الخليج لما يقارب 40 عاماً

1978

أسس جمعية المبرات الخيرية التي تضمّ مؤسسات رعائية وتربوية وإعلامية واستشفائية ودوراً للمسنين ومعاهد للإعاقة السمعية والبصرية ومراكز دينية وثقافية في لبنان والخارج

1982

شكّلت خطب الجمعة في مسجد الإمام الرضا في بئر العبد قاعدة احتضان فكري وتوجيهي للمقاومة الصاعدة في وجه الاحتلال الصهيوني للبنان

كان مؤسساً ومنظراً وداعماً للحركة الإسلامية ولحركات المقاومة في لبنان وفلسطين

1985

تعرض لمحاولات اغتيال عدة أبرزها انفجار سيارة مفخخة في بئر العبد عام 1985 ذهب ضحيتها 105 شهداء وحوالي 300 جريح، وأكدت تقارير صحافية أميركية ضلوع الاستخبارات الأميركية في هذه المجزرة. وجاء رد السيد بأن: «المسألة أنني أصبحت عنصراً متعباً للسياسة الأميركية في لبنان»

1995

أعلن مرجعيته نتيجة ضغط أكثر من جماعة في مختلف أنحاء العالم لإصدار رسالته العمليّة

قدّم رؤية جديدة في الفقه الإسلامي من خلال نقده لمناهج الاجتهاد وطرحه منهجاً تجديدياً

1996

أقام أول صلاة جمعة في افتتاح مسجد الإمامين الحسنين

أغنى المكتبة الإسلامية بعشرات المؤلفات الفكرية والفقهية وتفسير القرآن والحوارات والخطب والشعر حتى لُقّب بـ«شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء»

2006

كان لمواقف السيد فضل الله أثر روحي على المجاهدين خلال عدوان تموز 2006 على لبنان

كان رائد الانفتاح في لبنان ومنظّراً للحوار كقاعدة للحياة

زار العديد من الدول الإسلامية والعربية محاضراً، وشارك في العديد من المؤتمرات الدينية والفكرية وساهم في تأسيس المجتمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية والمجلس العالمي لأهل البيت

2010

توفّاه الله في الرابع من تموز عام 2010 وشُيّع في موكب رسمي وشعبي كبير، ووارى جثمانه الثرى في صحن مسجد الإمامين الحسنين

إعداد «القوس»

القوس

■ فريق التحرير: **عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، ألف باء القانون، بشرى زهوة**
■ تصميم فني وإنفوغرافيك: **رامي عليّان**

alqaous | al_qaous | alqaous22 | alqaous | 01/34 99 54
info@alqaous.com | www.alqaous.com